مَكَارِمُ الأَخْلاَق

د/ عبد الرقيب عبده خالد عبد الله

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن،

اليمن، إب

N٧١٢٨٤٩٥٠٥@gmail com

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

قال تعالى:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

(القلم:٤)

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » السلسلة الصحيحة، برقم(٤٥).

إهـــــــداء

إلى الدعاة العاملين،

الذين فرغوا أنفسهم لخدمة دين الله عزوجل

في مختلف الميادين،

أهدي هذه الدروس المتواضعة،

رجاء أن لا ينسوني ووالدي من دعوات

صالحة في ظهر الغيب.

مقدمة

من خلال تجربتي في مجال الدعوة على الله تعالى ـ والتي تقترب من العشرين عام ـ وجدت أن الخطاب الدعوي العام يركز في الغالب ـ على تذكير الناس بالجوانب الإيمانية والعبادات ولا يركز ـ بقدر كاف ـ على الجوانب الأخلاقية والمعاملاتية، فترسخ في أذهان كثير من الناس أنهم ما داموا مؤدين للشعائر العبادية بينهم وبين ربهم فلا يضيرهم إن قصروا في أخلاقهم ومعاملاتهم مع الخلق، وهذ خلق نوعا من التناقض في سلوك المسلم، فتجده مجتهدا في عبادة ربه، وبمجرد خروجه من محراب عبادته وطاعته لربه، ويبدأ في التعامل مع الناس من حوله الاَّ ويتحول من حَمَلٍ وديع إلى وحش مفترس، فيأخذ حقوق الناس بغير وجه حق، ويسب هذ ويشتم ذلك، وتجد لسانه تفري في أعرض الناس بلا خوف ولا وجل من الله تعالى الذي عبده وتذلل له في محراب العبادة والطاعة، ويحسب أن عبادته لله تعالى تنتهي عند انتهائه من أداء تلك الشعائر التعبدية، وما علم هذ المسكين أن عبادته لله تعالى ينبغي أن يكون لها أثرا على أخلاقه ومعاملاته مع الخلق والناس الذين من حوله.

لقد عني الإسلام بمحاسن الأخلاق منذ بزوغ فجره وإشراقة شمسه، وقد عنيت تعاليم الإسلام في العهد المكي والمدني على السواء بجانب الأخلاق؛ مما جعلها تتبوأ مكانة رفيعة بين تعاليمه وتشريعاته. والدين الاسلامي يقوم على أربعة أصول رئيسية وهي: الإيمانيات والعبادات،

والأخلاقيات والمعاملات، فبالإيمانيات والعبادات تنتظم علاقة العبد بخالقه، وبالأخلاقيات والمعاملات تنتظم علاقة الإنسان مع نفسه ومع أبناء المجتمع من حوله؛ ولذلك فإن للأخلاق منزلة عظيمة في الدين الاسلامي؛ لأنها أحد أركانه، وأصوله الأساسية، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ذكر لنا نماذج لمن يعيشوا تناقضا بين عباداتهم، ومعاملاته[1]، فذكر لنا قصة المرأة التي تصوم النهار وتقوم الليل لكنها تسيئ إلى جيرانها في أخلاقها ومعاملاتها، فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رجل: يا رسول الله: إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها فقال صلى الله عليه وسلم:" هي في النار" قال: يا رسول الله فان فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها وإنها تصدق بالأتوار من الأقط[2] ولا تؤذي جيرانها بلسانها قال:" هي في الجنة"[3] فهى ناجحة في جانب العبادات مقصرة

---

(1) كنت أعول على الاستشهاد في هذ الموطن بالحديث المشهور على ألسنة الناس: " **الدين المعاملة**"، فوجدته حديثاً ضعيفاً، وقد ضعفة العلامة الألباني رحمه الله تعالى في كتابه سلسلة الأحاديث الضعيفة ١١/٥، فاكتفيت، بما ثبتت صحته من أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ففيها الغنية والكفاية، ولعلَّ شهرة هذه المقولة في بابها كشهرة مقولة: " النظافة من الإيمان" فكلاهما مما اشتهرا على ألسنة الناس ولم يصح نسبتهما إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ويمكن الاستشهاد بهما على أنهما من منثور الحكم والاقوال الصحيحة الدلالة والمعنى، والحمد لله رب العالمين.

(٢) الأقط، وهو لبن مجفف يابس مستحجر يطبخ به، والتور: القطعة العظيمة منه، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ١/ ٥٧

(٣) مسند أحمد برقم (٩٦٧٣) ، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

في جانب الأخلاق والمعاملات، فكانت هذه نتيجة عملها ومصيرها في الآخرة.

ومثل ذلك الذي يجيئ مفلساً يوم القيامة من الحسنات؛ والسبب في ذلك أنه نجح في علاقة في علاقته مع ربه وخالقه، وأساء في أخلاقه ومعاملاته مع الخلق والناس من حوله، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار"(١).

فقررت المساهمة بجهد المقل في محاولة إعادة البناء الخلقي لهذه الأمة من خلال إعداد هذه الدروس المتواضعة، والتي أخترت منها جملة من مكارم الأخلاق الحسنة والتي أرى أنه يحسن بكل مسلم أن يتخلَّق بها؛ حتى يزداد قربا من الله ويكون محبوبا منه ومن خلقه.

وقد راعيت في طرح موضوعات الكتاب تجنب التوسع الممل أو التقصير المخل، وأحسب أن هذ المحتوى بهذا الحجم سيفيد كثيرا القارئ والمهتم بدراسة الأخلاق الإسلامية الحسنة، سواء أكان القارئ لها داعية

---

(١) رواه مسلم برقم (٤٦٧٨).

وخطيبا أو كان القارئ لها عادياً ممن يرغب في أن يترقى في سلَّم مكارم الأخلاق.

وقد راعيت في هذا المحتوى التسلسل المنطقي لكل موضوع، فأبدأ بالتعريف لكل خلق في المقدمة، تعريف لغويا واصطلاحيا، فإذ تجلى التعريف للقارئ، أذكر أهمية الخلق وعناية الإسلام به، وبعد ذلك أشير إلى حديث القرآن عن ذلك الخلق، ثم أشير إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك الخلق مع إيراد المواقف العملية من حياته صلى الله عليه وسلم؛ كونه قد طبَّق تلك الأخلاق واقعا عمليا وهو الأسوة والقدوة في هذ الجانب، وبعد ذلك أشير إلى الثمرات التي يتحصل عليها من تخلق بهذا الخلق أوذك.

وقد حرصت على أن أعزو الأحاديث الواردة في ثنايا الموضوعات إلى مصادره الأصلية، مع بيان درجة الأحاديث من حيث الصحة والضعف، ولا أورد الأحاديث الضعيفة إلا فيما ندر مع الإشارة إلى ذلك في الهامش؛ لأن فيما صح من أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم غنية عما سواها.

د/ عبد الرقيب عبده خالد عبد الله الراشدي

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن اليمن . إب بريدي الإلكتروني

N٧١٢٨٤٩٥٠٥@gmail com

موبايل/ واتس: ٧١٢٨٤٩٥٠٥

١٥جمادالأولى ١٤٤٠ الموافق ٢١/١٢/ ٢٠١٩

تقديم

بقلم/ أبو صلاح الدين المزحاني[1]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين سيدنا محمد الصادق الأمين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد اطلعت على ما كتبه الدكتور الفاضل عبد الرقيب عبده خالد الراشدي في موضوع مكارم الأخلاق فوجدته سفرا عظيما، وبحثا قيما ذا قيمة بالغة؛ وذلك لأنه طرق بابا مهما جدا ألا وهو موضوع الأخلاق، الموضوع الذي ترتقي به المجتمعات وتحافظ على ديمومتها واستمراريتها، كونه يمس روح المحبة والتآلف والتكافل والتكامل ويغرس الصدق في النفس البشرية ويحفظ الأمانة ويوصي بالصبر والإخلاص في كل شأن من شؤون الحياة وفي كل عمل يقوم به العبد؛ كي يستقيم الاعوجاج في المجتمع وتصلح أحوال الناس في كل مجالاتها وتوجهاتها وعلى مختلف انتماءاتها.

فالأخلاق الحميدة والفاضلة تجعل المجتمع راق ونظيف ومتميز كونه الأكثر تماسكا واستمرارا.

([1]) مفتش مالي وإداري في وزارة التربية والتعليم اليمنية.

يقول الشاعر:

إنما الأمم الأخلاق ما بقية فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

والعكس من ذلك فإن المجتمع الذي يفتقد للأخلاق الحميدة والمعاملة الحسنة ينتشر فيه داء هلاك الأمم، ولنا شوهد من تأريخ السابقين وماذا حل بهم من لدن قوم نوح مرورا بأقوام عاد وثمود وقوم لوط وشعيب وتُبَّع وغيرهم من الأمم التي كان من أسباب هلاكها فساد الأخلاق وانتشار الرذائل ومخالفتهم لمنهج الاستخلاف في الأرض الذي كلفوا به من قبل رب العلمين، وها نحن اليوم نشاهد بأم أعيننا الأمراض والأوبئة التي حلَّت بمجتمعاتنا، من مثل تفشي الجريمة وسوء الأحوال في مجتمعاتنا مما ينذر بعقاب من عند الله تعالى يحل بهذه المجتمعات ويُذهب ريحها.

ومما يؤسف له أننا في أيامنا هذه نرى كثيراً من أبناء مجتمعنا قد ساءت أخلاقهم وقل ذوقهم، فكثرة الشحناء فيما بين الرجال والنساء والشباب والأطفال على حد سواء فأخذت الحقوق بغير حق، واستبيحت الأموال بالباطل، وكثر الخوض في الأعراض وحققت الغيبة والنميمة رواجا في أوسط الناس، وقلَّ الحياء والصدق والأمانة، وضاعت العفة ومات الحلم، وفقد الإحسان، وعم الجهل والظلم والشهوات والغضب، وافرطت النفس في ضعفها البشري؛ فتعرصت للمهانة والخسة واللؤم والذل والحرص والشح وسفاسف الأمور وتنكبت عن الفطرة السليمة

فتولد عنها الفحش والطيش وتسلسل منها كل خلق ذميم فصارت ظلمات بعضها فوق بعض.

ولذا كان موضوع الدكتور عبد الرقيب ذا أهمية كبيرة؛ كونه يعالج واقع معاش نسأل الله أن يكتب أجره ويحقق غايته ومراده، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

سُلَّم مكارم الأخلاق

مكارم الأخلاق راعيت في ترتيب وضعها في الكتاب ترتيبا منطقياً متسلسلا، فتخيَّلت أن النفس الإنسانية بمثابة جبل شاق شديد الوعورة، ولكي نصعد إلى قمة هذ الجبل نحن بحاجة إلى سلَّم نصعد عليه، وهذ السلم يتمثل بسلم مكارم الأخلاق، ولكي نصعد على هذا السلم لابد من الصعود على درجاته، ودرجات السلم ترتيبها تصاعدي، بحيث يبدأ الصعود عليها من الأسفل إلى الأعلى، وكلما كانت درجات السلم الأولى ثابته وصلبه سهل الصعود عليها إلى بقية درجات السلم، وعلى هذ اجتهدت في ترتيب مكارم الأخلاق في هذ الكتاب، فابتدأنا بخلق الصدق ويليه خلق الأمانة؛ كونهما من الأخلاق الأساسية للأنبياء والمرسلين، ومن سار على طريقهم إلى يوم الدين، ثم ثلثنا بخلق الصبر؛ كونه يروض النفس الإنسانية على اكتساب بقية الاخلاق، ثم ذكرنا بعد ذلك خلق الإخلاص؛ ذلك أن الإخلاص بمثابة المحرك والدافع للاستمرار في صعود سلم المكارم، وهذ الصعود يحتاج إلى ثبات واستمرار في الصعود؛ لهذ جعلنا خلق الثبات في المرتبة الخامسة، وقد يتعرض السالك في سلم المكارم إلى مضايقات واستفزازات وهنا يحتاج منه إلى خلق الحلم، وأثناء سيره في سلم المكارم قد تستهويه بعض المناظر الجذابة والأخاذة للألباب والعقول فيحتاج إلى خلق العفة ليدفع تلك الخواطر والوساوس، وفي منتصف سلم المكارم يحتاج السائر إلى

استراحة في منتصف السلم؛ للنظر في سيره السابقين في درجات سلم مكارم الاخلاق، فسيكتشف أنه ما تخلق بها كما أراد الله، وهنا يتولد عنده خلق الحياء من ربه جلا وعلا، وهذا يدفعه للتخلق بخلق الوفاء مع الله تعالى؛ وأثناء تخلقه خلق الوفاء مع الله ينتابه شعور أنه مهما عمل من أعمال أوتخلق بأخلاق فهو بحاجة إلى أن يعفو الله عنه ويرحمه، ولن يتحصل على عفو الله ورحمته إلا إذ عفى عن الخلق ورحمهم؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وهنا سيحتاج للتخلق بخلقي العفو والرحمة، وفي أثناء سيره في سلم المكارم ستواجهه في طريقه أصناف شتى من الخلق مختلفي الطباع والأهواء، وهنا سيعلم يقينا أنه لن يتمكن من تجاوزهم وتخطي حواجزهم التي قد يضعونها في طريقه إلاَّ إذ تعامل معهم بخلقي الرفق والإحسان، وحينها سيجتهد في إكرام الخلق من عباد الله تعالى بقدر استطاعته ووسعه، وعند ذلك سيصل إلى قمة مكارم الأخلاق ويتربع على ذرة سنامها، ويكون من أهل خلق الشكر لله تعالى، ومن القليلين الذين وصفهم الله تعالى بقوله ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣].

هذه خمسة عشر خلقا من مكارم الأخلاق، والتي اجتهدت في اختيارها وترتيبها بهذه الطريقة، وهي ليست طريقة توقيفية فللقارئ لها والمستفيد منها ـ وخاصة الدعاة والخطباء ـ أن يقدموا فيها ويؤخروا بحسب ما يرونه مناسبا لهم ولحاجاتهم الدعوية والبيئية، واختبار هذه

الأخلاق لا يعني إهمال بقية الأخلاق فكل الأخلاق حسنة وكريمة في ذاتها؛ وما عنيته بجمعي لهذه الأخلاق؛ لأنها تمثل أمهات مكارم الأخلاق وتتدرج بقية الأخلاق تحتها، ومن اجتهد في التخلق بها يكون قد تخلق بمكارم الأخلاق وأجودها.

وفقنا الله تعالى جميعا لصالح القول وسديد العمل، وجنبنا مزالق الغواية والزلل، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تعريف الأخلاق

الأخلاق في اللغة

الأخلاق في اللغة جمع خُلُق، والخلق هو السجية والطبع، قال الراغب الأصفهاني:" الخلق أصله: التقدير المستقيم، والخَلْق والخُلُق في الأصل واحد، لكن خص الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة"(١) وقال ابن منظور:" الخُلُق(بضم اللام وسكونها) وهو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة"(٢)

الأخلاق في الاصطلاح

عرف الإمام الغزالي الخلق بقوله:" الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها

---

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الاصفهاني صـ ٢٩٦.

(٢) لسان العرب، لابن منظور ١٠/ ٨٥.

الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا، وإنما قلنا إنها هيئة راسخة؛ لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ، وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية؛ لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم."[١]

وقال الإمام القرطبي:" الأخلاق هي: عبارة عن أوصاف الإنسان التي بها يعامل غيره، ويخالطه، وهي منقسمة: إلى محمود ومذموم، فالمحمود منها، صفات الأنبياء، والأولياء، والفضلاء، كالصبر عند المكاره، والحلم عند الجفاء، وتحمل الأذى، والإحسان للناس، والتودد لهم، والمسارعة في حوائجهم، والرحمة، والشفقة، واللطف في المجادلة، ومجانبة المفاسد والشرور، والمذموم منها : نقيض ذلك كله"[٢]

---

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي٢/ ٢٥٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي١٩/ ٤٥.

مكانة الأخلاق في الإسلام

تحتل الأخلاق منزلة عالية في ديننا؛ ذلك أن الله خلق الإنسان وجعله يشترك مع الكائنات الحية في كثير من الصفات، من نوم ويقظة وفرح وحزن، وأكلا وشرب واستمتاع، لكنه يتميز عنها في مجال الاخلاق، وتقدير التصرفات والأفعال، وممارسته للأخلاق حسنها وقبيحها في تعاملاته مع الآخرين، وهو بذلك يُعبِّر عما وهبه الله تعالى من عقل، وما حباه به من هدى وإرشاد كما قال تعالى:﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[الشمس: ٧ – ١٠] ، وقال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠]' فإذا تخلى أفراد المجتمع عن الأخلاق والعادات الحسنة الحميدة، نزل بهم الحال إلى مستوى الحيوان البهيم، بل ربما ارتكسوا إلى منزلة أحط من الحيوان؛ وذلك حينما يعطلوا أدوات العلم والمعرفة التي وهبها الله لهم؛ وحين لا يستخدموها الاستخدام الأمثل في طاعة ربهم وحسن تخلقهم ومعاملاتهم مع الناس من حولهم قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[الاعراف: ١٧٩].

وسبب اهتمام الإسلام بالجوانب الأخلاقية، أن الأخلاق عنصر هام في تكوين الفرد المثالي والأسرة السليمة، والمجتمع الراقي والدولة المتقدمة، فالأخلاق الفاضلة هي التي تعصم هذه المجتمعات من الانحلال وتصون الحضارات من الضياع، والأخلاق الفاضلة من الدعائم الأساسية التي لا تستغني عنها جميع الشعوب والأمم.

إن استقراء التاريخ عبر حقبه الماضية والمعاصرة، ليكشف بكل وضوح تأثير الأخلاق ودورها في رقي الأمم واندحارها، فيوم مكن الله للأمة الإسلامية لم يكن النصر لسيوفهم بقدر ما كان لعقيدتهم وحسن أخلاقهم، وهو ما شهد به العدو قبل الصديق والنائي قبل الداني، ومن الأدلة والشواهد والبراهين على علو منزلة الأخلاق، ومكانتها السامية في الدين الاسلامي:

أولا: أنها من أهم مقاصد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم للناس فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** "[1]، وفي رواية أخرى عند أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"[2] فأحد أهم أسباب بعثته صلى الله عليه وسلم الرقي والسمو بأخلاق الفرد والمجتمع، قال تعالى: ﴿ هُوَ

---

(١) السلسلة الصحيحة برقم (٤٥).

(٢) مسند أحمد برقم (٨٩٣٩) ، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: صحيح الإسناد.

ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ [الجمعة: ٢] فيمتن الله على المؤمنين بأنه أرسل رسوله لتعليمهم القرآن وتزكيتهم، والتزكية بمعنى تطهير القلب من الشرك والأخلاق الرديئة كالغل والحسد وتطهير الأقوال والأفعال من الأخلاق والعادات السيئة.

ثانيا: أن الأخلاق جزء وثيق من الإيمان والاعتقاد: فإتمام الأخلاق وصلاحها من أهم ركائز الإيمان، فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم خلقا"(١)

وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حسن الخلق من البر، فعن النواس بن سمعان الأنصاري رضى الله عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال:" البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس"(٢) والبر اسم جامع لأنواع الخير من الأخلاق والأقوال والأفعال كما قال تعالى: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ

---

(١) رواه الترمذي برقم (١١٦٢) ، وقال عنه الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة برقم (٢٨٤).

(٢) رواه مسلم برقم (٤٦٣٢).

وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، ويظهر الأمر بجلاء في قول النبي صلى الله عليه وسلم: " الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان "[1]، فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم خلق الحياء شعبة من شعب الإيمان.

ثالثا: إن الأخلاق مرتبطة بكل أنواع العبادات: فلا يأمر الله بعبادة، إلا وينبه إلى مقصدها الأخلاقي وأثرها على النفس والمجتمع، فالصلاة رغم أنها عبادة لله تعالى إلا أن لها هدفاً خلقياً بجوار ذلك، قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ومثلها الزكاة قال تعالى عنها: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فمع أن حقيقة الزكاة إحسان للناس، ومواساتهم، فهي كذلك تهذب النفس، وتزكيها من الأخلاق السيئة، وقال تعالى عن الصيام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة:

---

(١) رواه مسلم برقم (٥١).

١٨٣]، فالهدف من الصيام هو تحقيق تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه فمن لم يؤثر صيامه في نفسه وأخلاقه مع الناس لم يحقق هدف الصوم، وهكذا بقية العبادات والطاعات، ينبغي لها أن تحقق أهدفها الخلقية بجانب هدفها التعبدي.

أهمية مكارم الأخلاق

مكارم الأخلاق لها منزلة عظيمة في دين الإ سلام؛ وذلك لما لها من تأثير كبير على سلوك الإنسان، فصلاح الإنسان مرهون بصلاح أخلاقه، وهذا يؤدي إلى صلاح المجتمع، وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم تبين لنا أهمية الأخلاق في الإسلام ومنها:

أولا: لأهمية الأخلاق الحسنة كان صلى الله عليه وسلم يدعو ربه أن يهديه لا حسن الاخلاق، فكان من دعائه صلى الله عليه وسلم "اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت"[١]، وكان يدعو قائلا "اللهم حسَّنت خلقي فحسن خلقي"[٢]، وكان يستعيذ بالله من سيئ الأخلاق قائلا:" اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق"[٣]

ثانيا: صاحب الخلق الحسن أقرب الناس مجلسا من النبي صلى الله عليه وسلم القيامة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:" إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا"[٤]

---

(١) مسند أحمد برقم (٧٢٩) ، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٢) صحيح ابن حبان برقم (٩٦٤).

(٣) ضعيف الجامع الصغير برقم (١١٩٨).

(٤) رواه الترمذي برقم (٢٠١٨) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٧٩١)

ثالثا: وبالخلق الحسن يدرك به الإنسان درجات العُبَّاد الكبار، فيدرك به صاحبه درجة القائم بالليل والصائم النهار، فعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: قال صلى الله عليه وسلم: "**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**"(١)

رابعا: الخلق الحسن أثقل شيء في ميزان العبد يوم القيامة، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله ليبغض الفاحش البذيء**" "(٢)

خامسا: الأخلاق الحسنة هى وصيته صلى الله عليه وسلم للمؤمن في معاملة الناس، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن**" "(٣)

سادسا: صاحب الخلق الحسن ضمن له رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتا في أعلى الجنة، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن**

---

(١) صحيح أبي داود برقم (٤٧٩٨).

(٢) صحيح الترمذي برقم (٢٠٠٢).

(٣) صحيح الترمذي، برقم (١٩٨٧).

كان مازحا وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه"[١] فالبيت العلوي في الجنة لصاحب حسن الخلق.

وسئل صلى الله عليه وسلم عن أهل الجنة فقال:" **ذو سلطان مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم وعفيف متعفف ذو عيال**"[٢].

هل الأخلاق جبلية أم كسبية؟

إن الأخلاق منها ما هو جبلي ومنها ما هو كسبي، فالجبلي: أن الله جبل عليه من شاء من خلقه، كما قال صلى الله عليه وسلم للأشج عبد القيس رضي الله عنه:" **إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة**"[٣]، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يسأل الله أن يكسبه الأخلاق الحسنة، قال في دعاء الاستفتاح: "**اللهم اهدني إلى أحسن الأخلاق لا يهدني لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت**"[٤]، ولولم يمكن اكتسابها ما سأل النبي ربه ذلك، ولاشك أن الجبلة قابلة للتغيير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى

---

(١) صحيح أبي داود، برقم (٤٨٠٠)

(٢) رواه مسلم، برقم (٥١٠٩).

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٤).

(٤) مسند أحمد برقم (٧٢٩) ، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

الله عليه وسلم:" **إنما العلم بالتعلم والحلم بالتَّحلم، ومن يتحر الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه** "[1]، فمعلوم أن الحلم من الأخلاق، فلم يقل: إذا لم يكن عندك حلم فلن تكون حليما أبدا، وإنما قال: "**والحلم بالتحلم**"، أي: إذا تكلفت الحلم حتى تتعود عليه صار ذلك طبيعة لك وسجية، وكذلك الصبر إذا تصبرت فستصبح صبورا، وهكذا بقية الأخلاق.

فالمجاهدة من الأمور التي تعين الإنسان على اكتساب الأخلاق الحسنة، وكذلك التدرج ينبغي أن يكون موجوداً في عملية تغيير الأخلاق.

---

(١) السلسلة الصحيحة برقم (٣٤٢).

١. خلق الصدق

الصدق في اللغة

قال ابن منظور:" الصدق نقيض الكذب، يُقال: صَدَقَ يَصْدقُ صِدْقا، وصدَّقه قبل قوله، وصَدَقَه الحديث أنبأه بالصدق، ويقال: صَدَقْت القوم أي قلت: لهم صدقا وكذلك من الوعيد إذا أوقعت بهم قلت صدقتهم ومن أمثالهم الصدق ينبئ عنك لا الوعيد ورجل صدوق أبلغ من الصادق"[١]

الصدق في الاصطلاح

قال الجرجاني:" الصدق: مطابقة الحكم للواقع، وقيل: قول الحق في مواطن الهلاك، وقيل: أن تصدق في موضع لا ينجيك منه إلا الكذب"[٢] وقيل في تعريفه:" استواء السر والعلانية والظاهر والباطن، بألا تكذب أحوال العبد أعماله، ولا أعماله أحواله"[٣]

مكانة الصدق ومنزلته

الصدق سيد الأخلاق وجامع المكارم والفضائل، ورأس البر وعنوان الشمائل، الصدق درب مضيء ونفس سامية، صاحبه موفق أبدا وأقل

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، ١٠/١٩٣باختصار.

(٢) التعريفات، للجرجاني صـ ٤٣ باختصار.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان الشافعي١/٢٤٧.

ما يحصله الصادق: حلاوة في منطقه، وملاحة في منظره، وهيبة في مطلعه.

وقد مدح الله نفسه بالصدق في كتابه العزيز بالصدق، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]، قال لإمام الطبري:" يعني بذلك: فاعلموا حقيقة ما أخبركم من الخبر، فإني جامعكم إلى يوم القيامة للجزاء والعرض والحساب والثواب والعقاب يقينا، فلا تشكوا في صحته ولا تمتروا في حقيقته" (١).

وحين نشأ رسول في مكة وترعرع فيها رسم لهم لوحة الصدق بأنقى صورها وأحلى معانيها حتى لقبوه بالصادق الأمين، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "ما كان خلق أبغض إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب، ولقد كان الرجل يكذب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذبة فما يزال في نفسه عليه، حتى يعلم أن قد أحدث منها توبة"(٢) .

وقد أمرنا الله بأن نتحلى بهذا الخلق العظيم، وأن نكون مع الصادقين، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية:" فهذه الآية بمنزلة

---

(١) تفسير الطبري ٨/٥٩٢.

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (٢٥٢٢٤)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

التذييل على قصة المخلفين عن غزوة تبوك و القصة مشتملة على ذكر قوم اتقوا الله فصدقوا في إيمانهم وجهادهم فرضي الله عنهم، وذكر قوم كذبوا في ذلك واختلقوا المعاذير وحلفوا كذبا فغضب الله عليهم، وقوم تخلفوا عن الجهاد وصدقوا في الاعتراف بعدم العذر فتاب الله عليهم، فلما كان سبب فوز الفائزين في هذه الأحوال كلها هو الصدق لا جرم أمر الله المؤمنين بتقواه وبأن يكونوا في زمرة الصادقين مثل أولئك الصادقين الذين تضمنتهم القصة، والأمر بـ ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أبلغ في التخلق بالصدق من نحو: اصدقوا، ونظيره "[1].

قال ابن القيم رحمه الله: "والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر، والصدق على ثلاثة أنواع الصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها، والصدق في الأعمال استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد والصدق، والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص واستفراغ الوسع وبذل الطاقة، فبذلك يكون العبد من الصادقين وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها بها، تكون صديقيته؛ وقد لقب أبو بكر رضى الله عنه وأرضاه بالصديق، والصديق أبلغ من الصدوق والصدوق أبلغ من

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٦/ ٤٠٠

الصادق، فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية وهي كمال الانقياد للرسول مع كمال الإخلاص للمرسل "[1].

الصدق من أخلاق الأنبياء والمرسلين

الصدق خلق من أخلاق الأنبياء والمرسلين، وجميع عباد الله الصالحين، قال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾[مريم: ٤١]، وقال تعالى عن إسحاق ويعقوب: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾ ﴾[مريم: ٥٠]، وقال تعالى عن إسماعيل: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ ﴾[مريم: ٥٤]، وقال تعالى عن إدريس: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾ [مريم: ٥٦]، وقد وصف الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأنه جاء بالصدق، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر: ٣٣]، كما أن التحلي بالصدق كان من أوليات دعوته صلى الله عليه وسلم، كما جاء مصرحا بذلك في قصة أبي سفيان مع هرقل، وفيها: أن هرقل قال لأبي سفيان:" ماذا يأمركم؟ قلت يقول اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين ٢/ ٢٦٩.

والصلة" [1] ويكفي الصدق شرفا وفضلا أن مرتبة الصديقية تأتي في المرتبة الثانية بعد مرتبة النبوة؛ قال الله تعالى:﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

الصدق مع الله تعالى

ويكون الصدق مع الله بطاعته وامتثال أمره قال تعالى:﴿ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴾[محمد: ٢١]' والمعنى: لو صدقوا الله لصدقهم الله و قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا"[2]، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم أجمعين أشد تمسكا بالصدق مع ربهم، ومع عباد الله، كما في قصة كعب بن مالك التي في الصحيحين، فحين تخلف عن غزوة تبوك حتى إذا ضاقت عليه الأرض بما رحبت وضاقت عليه نفسه: قال له رسول الله:" **أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**" قال: يا رسول

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٣٦).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٦٢٩)

الله، إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي"[1]

ومن دلائل الصدق مع الله تعالى أن يتخلص الإنسان من الأعذار ويبادر لنصرة دين الله تعالى، فهذا عمرو بن الجموح، شيخ طاعن في السن، يصر على الخروج مع المسلمين للقتال في غزوة أحد، مع أنه رجل أعرج عذره الله بقوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور: ٦١] ، ويبين له المسلمون أن الله عذره، فيقول: إني أريد أن أطأ بعرجتي الجنة، ويقاتل ويكرمه الله بالشهادة، وهذا ابن أم مكتوم رجل أعمى معذور من الله عز وجل هو الآخر في ترك القتال، ومع ذلك يطلب من المسلمين أن يعطوه اللواء ليرفعه لهم في المعركة قائلا: فإنني رجل أعمى لا أستطيع الفرار، وأولئكم قوم لا دواب لهم يغزون عليها، ولا مال لهم ينفقونه في سبيل الله، فهم معذورون من الله عز وجل، ولكنهم لا يفرحون أن ظروفهم خلصتهم من عبء الجهاد، بل يبكون على عدم استطاعتهم مشاركة إخوانهم، يقول جل وعلا: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٠٦٦) و صحيح مسلم برقم (٤٩٧٣).

أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [التوبة: ٩١ – ٩٣]، قال سيد قطب رحمه الله:" ليس على هؤلاء حرج إذا تخلفوا عن المعركة في الميدان وقلوبهم مخلصة لله ورسوله، لا يغشون ولا يخدعون، ويقومون بعد ذلك بما يستطيعونه – دون القتال– من حراسة أو صيانة أو قيام على النساء والذرية في دار الإسلام، أو أعمال أخرى تعود بالنفع على المسلمين ليس عليهم جناح، وهم يحسنون بقدر ما يستطيعون، فلا جناح على المحسنين، إنما الجناح على المسيئين، ولا جناح كذلك على القادرين على الحرب، ولكنهم لا يجدون الرواحل التي تحملهم إلى أرض المعركة، فإذا حرموا المشاركة فيها لهذا السبب، ألمت نفوسهم حتى لتفيض أعينهم دموعا ، لأنهم لا يجدون ما ينفقون.

وإنها لصورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه، وإنها لصورة واقعة حفظتها الروايات عن جماعة من المسلمين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تختلف الروايات في تعيين أسمائهم، ولكنها تتفق على الواقعة الصحيحة، بمثل هذه الروح انتصر الإسلام، وبمثل هذه الروح عزت كلمته، فلننظر أين نحن من هؤلاء، ولننظر أين روحنا من تلك العصبة، ثم لنطلب النصر والعزة إن

استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر، وإلا فلنسدد ولنقارب والله المستعان"[١].

أما أهل النفاق فقد كانوا يتحججون بالأعذار الكذابة؛ حتى لا يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل الجهاد، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[التوبة: ٤٩]، قال الإمام الألوسي في تفسير هذه الآية:" ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ في القعود عن الجهاد﴿ وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ أي لا توقعني في الفتنة بنساء الروم،﴿ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ أي في نفس الفتنة وعينها وقعوا؛ وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف والجراءة على هذا الاستئذان، والقعود بالإذن المبني عليه وعلى الاعذار الكاذبة، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾وعيد لهم على ما فعلوا أي جامعة لهم من كل جانب لا محالة وذلك يوم القيامة، "[٢]

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/. ٦٠

(٢) تفسير الألوسي ٢٥٤/٧ باختصار.

مجالات الصدق

أولا: الصدق في الأقوال

وهذا أشهر أنواع الصدق وأظهرها فواجب على كل عبد حفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق ويدخل في هذا مراعاة معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه، فهذ أنس ابن النضر يعاهد ربه ثم فيصدق مع الله فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنهما قال: غاب عمي أنس بن النضر رضي الله تعالى عنه عن قتال بدر، فقال: يارسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني: أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني: المشركين ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنهم أجمعين فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد، قال أنس: فوجدنا به بعضا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد مثَّلَ به المشركون، فما عرفه أحد إلا ببنانه، قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه، وفي أشباهه: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[الاحزاب: ٢٣] (١).

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٥٩٥).

ومن الأقوال التي ينبغي الحرص على الصدق فيها: الحلف والقسم، فقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يحلف بأبيه فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق ومن حُلِفَ له بالله فليرض ومن لم يرض بالله فليس من الله"(١)، ولا يجوز لك أن تواري فيه، ولا تجوز التورية في القسم عند القاضي أوعند الشخص الذي تريد أن تقسم له إذا كان صاحب حق، فلا تنفعك توريتك في اليمين، وهي حرام والواجب أن تكون يمينك على ما يصدقك به صاحبك ويفهم من كلامك.

ثانيا: الصدق في الأفعال

وهو استواء الفعل على الأمر والمتابعة، وهو أن تُصَدِّقْ السريرة العلانية حتى لا تدل أعمالهم الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمر في باطنه، والباطن بخلافه، فالمراؤون أعمالهم الظاهرة بخلاف بواطنهم، فلذلك ليسوا بصادقين في أعمالهم، بل هم من الكذابين، والأمثلة على الصدق في الأفعال وإخلاصها لله تعالى كثيرة ومنها: قصة الثلاثة الذين أطبق عليهم، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم

---

(١) صحيح الترغيب برقم (٢٩٥١).

الغار فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بي في طلب شيء يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج، قال النبي صلى الله عليه وسلم وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي فأردتها عن نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها، قال النبي صلى الله عليه وسلم وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أد إلي أجري فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي فقلت إني لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء

وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون"[1]، فكان كل واحد يذكر أرجى ما عمل في حياته لله وأصدق ما حصل منه لله حتى كان السبب في انفراج الصخرة عنهم من باب الغار.

من أمثلة الكذب في الأفعال ما فعله إخوة يوسف:﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨ ﴾[يوسف: ١٨] جعلوا في القميص دما، ليقولوا: إن الذئب قد أكله، ولكن نبي الله يعقوب عليه السلام بفطنته وفراسته عرف أن هذا القميص مصبوغ بدم كذب، فليس فيه تشقيق ولا آثار مخالب ولا أنياب، فاستغرب من كلامهم واستعجب وقال:﴿ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨ ﴾ .

ثالثا: الصدق في النية والإرادة

ومن الأمثلة التي وردت في السنة للدلالة على الصدق في النيات والإرادة ما جاء في حديث شداد بن الهاد: أن رجلا من الأعراب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها شيئا، فقسم وقسم للأعرابي، فأعطى أصحابه ما قسم له لكي يوصلوه إلى الأعرابي، وكان

---

(١) صحيح البخاري برقم (٢٢٧٢).

يرعى ظهرهم، فلما جاءوه دفعوا إليه نصيبه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم لك النبي صلى الله عليه وسلم، فأخذه فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما هذا؟ قال: قسمته لك، قال: ما على هذا تبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى ها هنا وأشار إلى حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**إن تصدق الله يصدقك**" والمعنى: إن كانت فعلا هذه نيتك صدقت الله فالله يصدقك، فلبثوا قليلا ثم نهضوا في قتال العدو فأتي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد أصابه سهم حيث أشار في نفس المكان الذي أشار إليه فقال النبي عليه الصلاة والسلام: أهو هو؟ قالوا: نعم، قال: صدق الله فصدقه، ثم كفنه النبي صلى الله عليه وسلم في جبته صلى الله عليه وسلم، ثم قدمه فصلى عليه فكان فيما ظهر من صلاته: "**اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا في سبيلك فقتل شهيدا أنا شهيد على ذلك**"[1] .

فالصدق من مكارم الأخلاق التي ينبغي على كل مؤمن صادق في إيمانه أن يتخلق بهذا الخلق مع ربه ومع نفسه ومع الخلق؛ حتى ينال النجاة في الدنيا والفوز في الآحرة.

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب، برقم (١٣٣٦).

٢ـ خلق الأمانة

الأمانة في اللغة

قال الراغب الأصفهاني :"الأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر، ويجعل الأمان تارة اسما للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارة اسما لما يؤتمن عليه الإنسان، نحو قوله تعالى: ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ [الأنفال: ٢٧] ، أي: ما ائتمنتم عليه"(١)، وقال منظور:" الأمان والأمانة بمعنى ضد الخيانة"(٢).

الامانة في الاصطلاح

قال الكفوي:" الأمانة مصدر " أمن " بالضم إذا صار أمينا ثم يسمى بها ما يؤمن عليه، وكل ما افترض على العباد فهو أمانة كصلاة وزكاة وصيام وأداء دين وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسرار، كل ما يؤتمن عليه كأموال وحرم وأسرار فهو أمانة"(٣)

مكانة خلق الأمانة في الإسلام

الأمانة خصلة سامية، وخلق كريم، وسلوك قويم، وقد عظم الله أمرها ورفع شأنها وأعلى قدرها، وأمر بحفظها ورعايتها، وفرض أداءها والقيام

---

(١) المفردات في غريب القرآن' للراغب الاصفهاني صـ ٩٠

(٢) لسان العرب١٣/٢١باختصار.

(٣) الكليات، للكفوي، صـ٢٥٠، باختصار.

بحقها قال تعالى: ﴿ فليؤد الذي اؤتمن أمانته﴾ [البقرة: ٢٨٣] ، وقال تعالى:﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾[النساء: ٥٨]، إن تحمل الأمانة أمر ليس بالهين اللين كما يعتقده الكثيرون، ولخطورة التفريط في الأمانة أبت السماوات والأرض والجبال حملها، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]' قال ابن كثير في تفسيره:" عرضها على السبع الطباق الطرائق التي زينت بالنجوم، فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. قالت: لا، ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد، التي شدت بالأوتاد، وذللت بالمهاد، فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. قالت: لا، ثم عرضها على الجبال الشوامخ الصعاب الصلاب، قيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت، قالت: لا، فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب، وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله:

﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ أي: ظلم نفسه بحمله إياها، جاهلا حق الله فيها. [١]

قال الشيخ محمد الغزالي:" الإسلام يرقب من معتنقه أن يكون ذا ضمير يقظ، تصان به حقوق الله وحقوق الناس، وتحرس به الأعمال من دواعي التفريط والإهمال، ومن ثم أوجب على المسلم أن يكون أمينا، والأمانة فى نظر الشارع واسعة الدلالة، وهى ترمز إلى معان شتى، مناطها جميعا شعور المرء، بتبعته فى كل أمر يوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسئول عنه أمام ربه"[٢].

.

الأمانة من أبرز أخلاق المرسلين

ما أرسل الله من نبي ولا رسول إلا وكانت الأمانة من أبرز الأخلاق التي يتصف بها، فهى من أبرز أخلاق الرسل عليهم الصلاة والسلام، فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب يخبرنا الله عز وجل في سورة الشعراء أن كل واحد منهم قد قال لقومه: ﴿إني لكم رسول أمين﴾ [الشعراء: ١٠٧]، وجبريل عليه السلام أمين وحي السماء، وصفه الله بذلك في قوله تعالى:﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين﴾[الشعراء: ١٩٣]، وأمانة موسى وقوته هي التي دفعت إحدى ابنتي شعيب إلى

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٨٩.

(٢) خلق المسلم، لمحمد الغزالي، صـ ٣٣.

استئجاره لرعي أغنامهم، ﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾[القصص: ٢٦] ، ويوسف الصديق عليه السلام لم يرشح نفسه لإدارة شئون المال بنبوته وتقواه فحسب، بل بحفظه وعلمه وأمانته أيضا، قال تعالى:﴿قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾[يوسف: ٥٥]، ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم أمين الله في الأرض على الرسالة، فهو الذي يبلغ عن ربه هذا الدين العظيم، وقد كانوا يتركون ودائعهم عنده صلى الله عليه وسلم ليحفظها لهم؛ فقد عرف الرسول صلى الله عليه وسلم بصدقه وأمانته بين أهل مكة، فكانوا يلقبونه قبل البعثة بالصادق الأمين، وحينما هاجر الرسول من مكة إلى المدينة، ترك علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليعطي المشركين الودائع والأمانات التي تركوها عنده، وامتدح عباده المؤمنين بقوله:﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ [المعارج: ٣٢].

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بأداء الأمانات فقال:﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ [النساء: ٥٨]، وقد جاء في سبب نزول الآية: أنها نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي من بني عبد الدار كان سادن الكعبة، فلما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، أغلق عثمان باب البيت وصعد السطح، فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المفتاح، فقيل: إنه مع عثمان، فطلب منه فأبى وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه المفتاح، فلوى علي بن أبي طالب يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم

البيت وصلى فيه ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين السقاية والسدانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه، ففعل ذلك علي، فقال له عثمان: يا علي أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق؟؟ فقال: لقد أنزل الله تعالى في شأنك، وقرأ عليه هذه الآية، فقال عثمان: أشهد أن محمدا رسول الله وأسلم، فجاء جبريل عليه السلام فقال: ما دام هذا البيت فإن المفتاح والسدانة في أولاد عثمان، وهو اليوم في أيديهم"[1]، وتكريما لشأن عثمان والمفتاح والأمانة، خصه صلى الله عليه وسلم وذريته من بعده بسدانة البيت والمفتاح فقال: " خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم"[2] ، ولما مات عثمان سلمه لابنه شيبه ومازال المفتاح في بني شيبة حتى يومنا هذا .

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر عثمان بن طلحة أن المفتاح سيؤول إلي النبي صلى الله عليه وسلم يضعه حيث شاء، وذلك لما منعه عثمان بن طلحة من دخول البيت قبل الهجرة، فعن عثمان بن طلحة قال: " كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلظت له ونلت منه فحلم عني ثم قال:" **يا عثمان لعلك سترى هذا**

---

(١) أسباب النزول، للواحدي صـ ٥٥، وفي سند ارسال.

(٢) رواه مسلم برقم (٢٣٥٨).

المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت" فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال صلى الله عليه وسلم: "بل عمرت وعزت يومئذ"، ودخل الكعبة فوقعت كلمته مني موقعا ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال، فلما كان يوم الفتح قال:" يا عثمان ائتني بالمفتاح" فأتيته به فأخذه مني ثم دفعه إلي وقال :"**خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف**" قال فلما وليت ناداني فرجعت إليه فقال :" ألم يكن الذي قلتلك؟" قال فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة: لعلك سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت، فقلت: بلى أشهد أنك رسول الله"[١] .

أنواع الأمانات

لو سألنا واحد من الناس ما هي الأمانة؟ لأجاب بأنها: رد الودائع والأمانات إلى أصحابها، وهذا فهم قاصر لمعنى الأمانة، فالأمانة ليست كما يعتقده كثير من الناس أنها تتعلق بالودائع وحفظ الأمتعة والأموال لحين عودة صاحبها ثم يردها له أو ينكرها، بل تتسع الأمانة في مفهومها لتشمل كل ما يحمله المسلم من أمور الدين والدنيا؛ ولهذا ندرك خطأ فهم العامة للأمانة وحصرها في أداء الإنسان للحقوق المالية فقط، وإليكم بعض مجالات الأمانة التي ينبغي أن نرعاها ونحفظها:

---

(١) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، لابن حبان،١/٣٣٨.

أولا: أمانة الإيمان بالله وتوحيده: حقوق الله عز وجل هي أعظم الحقوق وفي مقدمتها الإيمان به سبحانه وتوحيده، قال تعالى:﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقد فسرت الامانة بعمل الطاعات والفرائض، فعن ابن عباس قوله: ﴿إنا عرضنا الأمانة﴾: الطاعة عرضها عليها قبل أن يعرضها على آدم، فلم تطقها، فقال لآدم: يا آدم إني قد عرضت الأمانة على السموات بالفرائض والأرض والجبال، فلم تطقها، فهل أنت آخذها بما فيها؟ فقال: يا رب: وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت، فأخذها آدم فتحملها فذلك قوله: ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ [(١)]، وهي الأمانة العظمى والوديعة الكبرى التي أودع الله الخلائق، وأخذ العهد عليهم بها وأشهدهم عليها، وقال عز وجل لهم: ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم علىٰ أنفسهم ألست بربكم قالوا بلىٰ شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هٰذا غافلين ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية:" المعنى: أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجسام، وأنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه، وقيل المراد ببني آدم هنا: آدم نفسه، كما وقع في غير هذا الموضع، والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح

---

(١) تفسير الطبري٢٠/٣٣٨.

ظهره، فاستخرج منه ذريته، وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء هم عالم الذر، وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه، ولا المصير إلى غيره، لثبوته مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وموقوفا على غيره من الصحابة"[١] وقد سئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية:﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم﴾ فقال رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال رسول الله:" ان الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه واستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذريه فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون" فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار"[٢]؛ ولهذا فإن حق الله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا، كما أن حقهم عليه سبحانه أن لا يعذب من مات منهم وقد أدى الأمانة في توحيده كما جاء ذلك في حديث معاذ قال: كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لي:" يا معاذ أتدري ما حق

---

(١) فتح القدير، للشوكاني٣/١١٦.

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (٣١١)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره.

الله على العباد وما حق العباد على الله؟، فقلت: الله ورسوله أعلم قال: "حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا"، فقلت: يا رسول الله: أفلا أبشر الناس، قال: "لا تبشرهم فيتكلوا"[1]، وعلى هذا الاساس فالصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها من شعائر الدين أمانة، ومن فرط في شيء منها أو أخل به فهو مفرط فيما ائتمنه عليه ربه تبارك وتعالى، ومن الأمانة أيضا تبليغ هذا الدين والدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده، فالرسل أمناء الله على وحيه، قال صلى الله عليه وسلم :" ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحا ومساء "[2]، وكذلك كل من جاء بعدهم من العلماء والدعاة، فهم أمناء في تبليغ هذا الدين، والدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده.

ثانيا: أمانة الأعضاء والجوارح

ومن الأمانة أن تنظر إلى حواسك التي أنعم الله بها عليك، وإلى جوارحك التي أسداها لك، فتدرك أنها ودائع الله عندك فتسخرها في طاعته، وتستخدمها في مرضاته، وإن من الخيانة أن تستقوي بها على معصية الله تعالى، فأمانة العين تقتضي أن تغض بصرك عما حرم الله،

---

(١) رواه البخاري برقم/٦٨٢٥.

(٢) رواه البخاري برقم (٤٣٥١).

وفي المقابل أن تقرأ بها الكتب النافعة لتتعلم أمور دينك ودنياك، قال تعالى: ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ﴾ [النور: ٣٠- ٣١]، وأمانة اللسان تقتضي أن تكفه عن محرمات الأقوال من كذب وغيبة ونميمة وسخرية واستهزاء، كما أنها تقتضي منك أن تسخره في الدعوة إلى الخير، والتحذير من الشرك، وما أكثر خيانات الألسن ووقوعها في أعراض المسلمين، وسائر الأعضاء والجوارح أمانة فالبصر أمانة، والسمع أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، واللسان أمانة، والفرج والبطن وغير ذلك أمانة عندك، فلا تأتي الحرام من قبل ذلك، وإلا أصبحت مفرطا فيما ائتمنت عليه، واحذر أن تكون هذه الجوارح شاهدة عليك يوم القيامة إن فرطت فيها، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ [النور: ٢٤].

ثالثا: أمانة المجالس

ومن الأمانة أن تحفظ حقوق المجالس التي تشارك فيها، فلا تدع لسانك يفشي أسرارها، ويسرد أخبارها، فكم من حبال تقطعت، ومصالح تعطلت، لاستهانة بعض الناس بأمانة المجالس، قال عليه الصلاة

والسلام": إذا حدث رجل رجلا بحديث ثم التفت، فهو أمانة"[١]، وحرمات المجالس تصان ما دام الذي يجري فيها مضبوطا بضوابط الشرع، وإلا فليست لها حرمة، وعلى كل مسلم شهد مجلسا يمكر فيه المجرمون بغيرهم ليلحقوا بهم الأذى، أن يسارع إلى الحيلولة دون الفساد قدر الاستطاعة، قال صلى الله عليه وسلم: " المجلس بالأمانة إلا ثلاثة: مجلس سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق"[٢]، وعليه فإن إفشاء سر المسلمين خيانة يكبر إثمها مع عظم الضرر المترتب على هذا الإفشاء، قال الحسن رحمه الله: " إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك".

ومن معاني الأمانة أن تصدق من استشارك، قال عليه الصلاة والسلام: " المستشار مؤتمن"[٣]، أي أنه أمين فيما سئل عنه واستشير فيه، فينبغي أن ترشد أخاك إلى الحق إن كنت تعلمه، ولا تضله إن كنت تجهله، وكفى بالمرء خيانة أن يرى الخير في أمر فيشير على أخيه بخلافه، قال صلى الله عليه وسلم: " من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه"[٤]

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٠٢٥).

(٢) رواه أبو داود برقم (٤٨٦٩) ، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة.

(٣) صحيح الجامع الصغير برقم (٦٧٠٠).

(٤) حديث حسن، صحيح الجامع، برقم (٦٠٦٨).

رابعا: الأمانة في إتقان الأعمال

لقد سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الوظائف أمانات، وطلب من ذوي القوى الإحسان فيها والتيقظ لها، ونصح النبي صلى الله عليه وسلم الضعفاء من أمته بعدم طلبها أو التعرض لها، فقد سأله أبو ذر رضي الله عنه أن يستعمله فضرب بيده على منكبه وقال: "**يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها**" (١)

فالأمانة في العمل أن يحرص المرء المسلم على أداء واجبه كاملا في العمل الذي يناط به، وأن يستنفد جهده في إبلاغه تمام الإحسان، أجل، إنها الأمانة التي يمجدها الإسلام: أن يخلص الرجل لشغله، وأن يسهر على حقوق الناس التي وضعت بين يديه، وان لا يخون الامانة بأن يسخر ما تحت يده لخدمة أغراضه وأهداف الشخصية ؛ فإن عاقبة ذلك وخيمة يوم القيامة، فعن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة " . وفي رواية : " لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ألا ولا غادر أعظم من أمير عامة " (٢).

والمعنى: ليس أعظم خيانة ولا أسوأ من رجل تولى أمور المسلمين فخانها وأضاعها.

---

(١) رواه مسلم برقم (٣٤٠٤).

(٢) رواه مسلم برقم (٣٧٢٧).

خامسا: الأمانة في البيع والشراء

من الأمور المهمة التي ينبغي مراعاتها في مسالة البيع والشراء، مسألة الأمانة في وصف السلعة وبيان محاسنها ومعايبها للمشتري؛ ذلك أن الأمانة في هذ الموطن من أسباب حصول البركة في البيع والشراء، فعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما"(١).

وهذه رسالة للتجار والبائعين والمقاولين وأصحاب العقارات أن يتأملوا في هذه القصة التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم لأمته، علهم يراعوا الأمانة في تعاملاتهم مع غيرهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "اشترى رجل من رجل عقارا له، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب، فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مني إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب، وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل، فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لي غلام. وقال الآخر: لي جارية. قال: أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدقا"(٢).

---

(١) رواه البخاري برقم (١٩٣٧).

(٢) رواه البخاري برقم (٣٢١٣).

سادسا: الأمانة في العلاقات الزوجية

للعلاقات الزوجية أمانتها وحرمتها التي يجب الحفاظ عليها وعدم كشفها إلا لمصلحة شرعية راجحة، فعن أبي سعيد الخدري قال قال عليه الصلاة والسلام: "إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة: الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشر سرها"(١)، قال الإمام النووي في شرحه لهذ الحديث" وفي هذا الحديث تحريم إفشاء الرجل ما يجري بينه وبين امرأته من أمور الاستمتاع، ووصف تفاصيل ذلك وما يجري من المرأة فيه من قول أو فعل ونحوه، فأما مجرد ذكر الجماع، فإن لم تكن فيه فائدة ولا إليه حاجة فمكروه لأنه خلاف المروءة، وقد قال صلى الله عليه وسلم: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت "، وإن كان إليه حاجة أو ترتب عليه فائدة بأن ينكر عليه إعراضه عنها أو تدعي عليه العجز عن الجماع أو نحو ذلك فلا كراهة في ذكره كما قال صلى الله عليه وسلم لأبي طلحة : " أعرستم الليلة ؟ " وقال لجابر: " الكيس الكيس" (٢).

ومن الأمانة في ذللك عدم كشف أمور العشرة الزوجية لأحد سواء من قبل الرجل أو المرأة، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال:" ألا عسى أحدكم أن يخلو بأهله؛ يغلق

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٥٩٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي،٥/ ١٦٢.

بابا؛ ثم يرخي سترا، ثم يقضي حاجته، ثم إذا خرج حدث أصحابه بذلك، ألا عسى إحداكن أن تغلق بابها، وترخي سترها، فإذا قضت حاجتها حدثت صواحبها"، فقالت امرأة سفعاء الخدين: والله يا رسول الله! إنهن ليفعلن، وإنهم ليفعلون، قال:" فلا تفعلوا، فإنما مثل ذلك مثل شيطان، لقي شيطانة على قارعة الطريق، فقضى حاجته منها، ثم انصرف وتركها"[١]، وعن أسماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله والرجال والنساء قعود عنده، فقال: "لعل رجلا يقول ما يفعل بأهله، ولعل امرأة تخبر ما فعلت مع زوجها!"، فأزم القوم – أي سكتوا وجلين – فقلت: إي والله يا رسول الله إنهم ليفعلون وإنهن ليفعلن، قال: " فلا تفعلوا، فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقي شيطانة فغشيها والناس ينظرون"[٢]

سابعا: الأمانة في نقل العلم والحديث

وهذ النوع من الامانة رسالة للعلماء والمحدثين، الذين لا يراعون الأمانة العلمية في نقولهم وبحوثهم، ونسبة الأقوال لأنفسهم، ونقل فصول كاملة بمراجعها على أنها من جهدهم، من أجل حصول أحدهم على شهادة يضر نفسه بها روى أن الإمام البخاري صاحب الصحيح رحمه الله تعالى ذهب مسافرا إلى شيخ من الشيوخ ليروي عنه حديثا عن

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٠٢٣) ، وقال عنه الالباني: حسن لغيره.

(٢) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٠٢٢) ، وقال عنه الالباني: صحيح لغيره.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل المدينة لا يعرف أين الشيخ؟ فلما دخل في أحد شوارعها وجد رجلا مع فرس وهو يريد أن تلحق به الفرس، ووجد أنه قد رفع ثوبه كأنه يحمل في حجره شيئا، فرأى الفرس تلحق به، فلما وصل إلى بيته أمسك بالفرس وفتح حجره وإذا به خاليا ليس فيه شيء، فلما نظر البخاري إلى هذه الفعلة قال له: أريد فلان بن فلان. فقال له الرجل: وماذا تريد منه؟ قال: لا أريد منه شيئا سوى أني حدثت أنه يروي عن فلان عن فلان عن فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا، وذكر الحديث، فقال هذا الرجل: أنا فلان، وحدثني فلان عن فلان عن فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال كذا، فماذا صنع البخاري؟! أبى أن يروي عنه، وقال: إذا كان الرجل يكذب على بهيمته فأخشى أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قصص وصور مشرقة عن الأمانة

وهذه قصص مشرقة ومشاهد حية عن الأمانة لمن سبقنا من الصالحين، سأذكر لكم بعضها، وأترك لكم المقارنة بين ما كان عليه الصالحون، وما نحن عليه الآن، وكفي بالواقع المعاصر دليلا وشهيدا.

الأمانة في القرض والمداينة

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه ذكر رجلا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيدا، قال:

فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلا. قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركبا، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلانا ألف دينار فسألني كفيلا فقلت كفى بالله كفيلا فرضي بك، وسألني شهيدا فقلت كفى بالله شهيدا فرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستو دعكها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطبا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار فقال: والله ما زلت جاهدا في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟! قال: أخبرك أني لم أجد مركبا قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف الدينار راشدا"[1]،هذا حالهم، أما حالنا؟ لو سلفت رجلا مبلغا من المال لا يستشعر الكثير الامانة الملقاة على عاتقه في سداد ما عليه من ديون

(١) صحيح البخاري في بَاب الْكَفَالَةِ فِي الْقَرْضِ وَالدُّيُونِ.

للآخرين، بل يماطلك ثم يخاصمك ويتجنبك إن طالبته، وتصير قطيعة بينكما بسبب معروف قدمته له!!!

ومن ذلك ما حكاه ابن عقيل عن نفسه قائلا: "حججت فالتقطت عقد لؤلؤ في خيط أحمر، فإذا شيخ ينشده، ويبذل لملتقطه مائة دينار، فرددته عليه فقال: خذ الدنانير، فامتنعت وخرجت إلى الشام، وزرت القدس، وقصدت بغداد فأويت بحلب إلى مسجد وأنا بردان جائع، فقدموني، صليت بهم، فأطعموني، وكان أول رمضان، فقالوا: إمامنا توفي فصل بنا هذا الشهر، ففعلت، فقالوا: لإمامنا بنت فزوجت بها، فأقمت معها سنة، وأولدتها ولدا بكرا، فمرضت في نفاسها، فتأملتها يوما فإذا في عنقها العقد بعينه بخيطه الأحمر، فقلت لها: لهذا قصة، وحكيت لها، فبكت وقالت: أنت هو والله، لقد كان أبي يبكي، ويقول: اللهم ارزق بنتي مثل الذي رد العقد علي، وقد استجاب الله منه، ثم ماتت، فأخذت العقد والميراث، وعدت إلى بغداد، فالأمانة شاملة لعباداتنا ومعاملاتنا وعلاقاتنا الداخلية والخارجية وشؤون حياتنا اقتصادا وأمنا وتعليما وتخطيطا وتنظيما لشؤون المجتمع كلها أمانة في أعناق الجميع، فليتقي العبد ربه فيما يأتي ونذر.

فمن اتصف بكمال الأمانة فقد استكمل الدين، ومن فقد صفة الأمانة فقد نبذ الدين، كما روى الطبراني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له** "[1]

(١) رواه أحمد في مسنده برقم (١٢٥٨٩) ، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: حديث حسن.

٣ـ خلق الصبر

الصبر في اللغة

قال الراغب الأصفهاني:" الصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، فالصبر لفظ عام، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبرا لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سمي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمي رحب الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتمانا، ويضاده المذل"(١).

الصبر في الاصطلاح

قال المناوي:" الصبر هو: قوة مقاومة الأهوال والآلام الحسية والعقلية، وقيل بأنه: ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله فإنه تعالى أثنى على أيوب بالصبر مع دعائه في دفع الضر عنه"(٢). وقال ابن القيم:" الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، وتعويد النفس الهجوم على المكاره وقيل: هو الثبات مع الله وتلقي بلائه بالرحب والدعة وقال الخواص: هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة، وقيل: الصبر أن ترضى بتلف نفسك في رضى من تحبه" (٣)

---

(١) المفردات، للراغب الأصفهاني صـ ٤٧٤ باختصار

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناويً صـ ١٩٦باختصار.

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم الجوزية صـ ١٥٨/٢.

حديث القرآن عن خلق الصبر

ذكر الله تعالى الصبر في القرآن الكريم في تسعين موضعا[١] وكفى بهذا شرفا و فضلا، وحسبك بذلك حثا عليه وترغيبا فيه، ولا نستطيع في كتابنا هذا أن نشير إلى جميع هذه المواضع لكن حسبنا أن نشير إلى بعضها، فمن ذلك قوله تعالى آمرا بالصبر حاثا عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، قال سيد قطب في ظلاله حول هذه الآية:" والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة، إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك مفروش بالدماء والأشلاء وبالإيذاء والابتلاء، الصبر على أشياء كثيرة، الصبر على شهوات النفس ورغائبها، وأطماعها ومطامحها، وضعفها ونقصها، وعجلتها وملالها من قريب! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم، وانحراف طباعهم، وأثرتهم، وغرورهم، والتوائهم، واستعجالهم للثمار، والصبر على تنفج الباطل[٢] ، ووقاحة الطغيان، وانتفاش الشر، وغلبة الشهوة، وتصعير الغرور والخيلاء، والصبر على قلة الناصر، وضعف المعين، وطول الطريق ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق! والصبر على مرارة الجهاد والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة

---

(١) ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي صـ ٢٦٩.

(٢) تنفج الباطل: توسع الباطل وظهوره، لسان العرب ، لا بن منظور ٢/ ٣٨١.

والانتصار والغلبة، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء! والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله ، واستسلام لقدره، ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع، والذين آمنوا كانوا قد ذاقوا جوانب كثيرة من ذلك المدلول الحقيقي، فكانوا أعرف بمذاق هذا النداء، كانوا يعرفون معنى الصبر الذي يطلب الله إليهم أن يزاولوه"[1].

والأهمية الصبر فقد أمر الله تعالى به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن في عشرين مرة؟ ثمانية عشر مرة، بفعل الأمر(اصبر)، ومرتين(اصطبر) قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقال له ربه:﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥ ﴾ [المعارج: ٥]، وقال له: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠ ﴾[الروم: ٦٠.]، وقال تعالى:﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالى﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩ ﴾[يونس: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥ ﴾[مريم: ٦٥]وغير ذلك من الآيات الواردة في هذ السياق.

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٣٦/٢.

أنواع الصبر

أولا: الصبر على الطاعات

لأداء فرائض العبادات والطاعات يحتاج المرء إلى الصبر عليها حتى يؤديها كما ينبغي، قال الله عز وجل: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥ ﴾[مريم: ٦٥]، قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:" ﴿ وَٱصۡطَبِرۡ ﴾ والاصطبار: شدة الصبر على الأمر الشاق؛ لأن صيغة الافتعال ترد لإفادة قوة الفعل، وكان الشأن أن يعدى الاصطبار بحرف "على" كما في قوله تعالى: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا ﴾[طه: ١٣٢]، ولكنه عدي هنا باللام لتضمينه معنى الثبات، أي: اثبت للعبادة؛ لأن العبادة مراتب كثيرة من مجاهدة النفس، وقد يغلب بعضها بعض النفوس فتستطيع الصبر على بعض العبادات دون بعض؛ فلذلك لما أمر الله رسوله بالصبر على العبادة كلها وفيها أصناف جمة تحتاج إلى ثبات العزيمة، نزل القائم بالعبادة منزلة المغالب لنفسه، فعدي الفعل باللام كما يقال: اثبت لعباداتك"[١] .

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور٨/ ٤٩٩باختصار.

وقد ذكر الله تعالى لنا في كتابه الكريم نموذجا للصبر على الطاعة، وهذا النموذج يتمثل في اسماعيل عليه السلام حينما قال له والده إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾[الصافات: ١٠٢] فكان جواب إسماعيل عليه السلام: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ ﴾[الصافات: ١٠٢] هذا هو الصبر على طاعة الله وإن كلفت الانسان حياته، وانظر إلى قوله: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ قال: ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ لم يدعها بطولة أو شجاعة، بل اعتصم بالله تعالى، وكان من الصابرين بتوفيق الله وفضله وحمايته له. ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ [الصافات: ١٠٣]' أسلم الوالد ولده للذبح وأسلم الولد عنقه لله، جاء الفرج من الله وناديناه ربه: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾ [الصافات: ١٠٤ـ١٠٧]

ثانيا الصبر عن المعصية

فالنفس في طبيعتها تميل إلى حب الشهوات والسعي إلى تحصيلها بالطرق المشروعة أوغيرها وإذا لم يُصَبِّرْ الإنسان نفسه عن الشهوات المحرمة فسرعان ما سيقع فيها ولن يعصمه من ذلك الا الصبر عن شهوات النفس المحرمة، وقد ضرب الله عز وجل لنا في كتابه مثلا

للصابر عن معصية الله ويتمثل ذلك في يوسف عليه السلام الذي عرضت له المعصية وأغري بالفاحشة كما قال تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[يوسف: ٢٣] قال الإمام الرازي في تفسير لهذه الآية:" اعلم أن يوسف عليه السلام كان في غاية الجمال والحسن، فلما رأته امرأة العزيز طمعت فيه ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ ﴾ والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا في المواضع المستورة لا سيما إذا كان حراما، ومع قيام الخوف الشديد وإنما جاء غلقت على التكثير؛ لأنها غلقت سبعة أبواب، ثم دعته إلى نفسها بقولها له: ﴿ هَيۡتَ لَكَۚ ﴾ ومعناه هلمَّ، ولما ذكرت المرأة هذا الكلام قال يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ أي أعوذ بالله، ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ حين قال لها زوجها: ﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا [يوسف: ٢١ ،] ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الذين يجازون الإحسان بالإساءة، وقيل: أراد الزناة؛ لأنهم ظالمون أنفسهم "[1].

وكان يمكن ليوسف أن يقع في أوحال المعصية خصوصا أنه شاب والشباب شعلة من الجنون، وأنه عزب ولا زوجة له وأنه غريب في أرض

(١) مفاتيح الغيب، للرازي٩/ ١٩باختصار.

لا يعرفه فيها الناس، لكنه امتنع عن مقارفة هذ الفعل الشنيع، فاعتصم يوسف بالصبر فنجاه الله من الوقوع في أوحال المعصية والرذيلة.

ثالثا: الصبر على أقدار الله عز وجل

وقد ذكر الله تعالى لنا في كتابة نموذجا لهذا النوع من أنواع الصبر يتمثل في أيوب عليه السلام فقد أثنى الله على عبده أيوب فقال: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤]، ولنستمع إلى شيء من خبره، فعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن أيوب نبي الله صلى الله عليه وسلم لبث في بلائه ثمان عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين، قال له صاحبه: وذاك قال منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلما راح إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له فقال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله إلى أيوب في كتابه ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص: ٤]، فاستبطأته فبلغته فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء فهو

أحسن ما كان فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلي؟ والله على ما رأيت أحدا كان أشبه به منك إذ كان صحيحا، قال فإني أنا هو وكان له أندران[1]، أندر القمح وأندر الشعير، فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاضت وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاضت"[2].

فلما علم الله صدق صبر نبيه أيوب عليه السلام استجاب الله دعاءه ورفع ما نزل به من بلاء وضر، قال تعالى: واصفا حال أيوب:﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وهذا أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي التابعي الجليل الذي وصفه ابن حبان في كتابه الثقات فقال: من عباد أهل البصرة وزهادهم يروى عن أنس بن مالك ومالك بن الحويرث وروى عنه أيوب وخالد مات بالشام سنة أربع ومائة في ولاية يزيد بن عبد الملك حدثني بقصة موته محمد بن المنذر بن سعيد من طريق الأوزاعي عن عبد الله بن محمد قال خرجت الى ساحل البحر مرابطا وكان رابطنا يومئذ عريش مصر

---

(1) الأنْدَر: هو الموضع الذي يوضع فيه الطَّعام. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ٤/ ٨١.

(٢) صحيح ابن حبان برقم (٢٨٩٨)، وذكره الالباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٧).

قال فلما انتهيت إلى الساحل فإذا أنا ببطيحة[1] وفى البطيحة خيمة فيها رجل قد ذهب يداه ورجلاه وثقل سمعه وبصره وما له من جارحة تنفعه إلا لسانه وهو يقول: اللهم أوزعني أن أحمدك حمدا أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها على وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلا، قال الأوزاعي: قال عبد الله قلت: والله لآتين هذا الرجل ولأ سألنه أنى له هذا الكلام فأتيت الرجل فسلمت عليه فقلت: سمعتك وأنت تقول: اللهم أوزعني أن أحمدك حمدا أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها على وفضلتني على كثير من خلقت تفضيلا فأي نعمة من نعم الله عليك تحمده عليها؟ وأي فضيله تفضل بها عليك تشكره عليها؟ قال: وما ترى ما صنع ربي والله لو أرسل السماء علي نارا فأحرقتني، وأمر الجبال فدمرتني، وأمر البحار فغرقتني، وأمر الأرض فبلعتني، ما ازددت لربى إلا شكرا لما أنعم على من لساني هذا، ولكن يا عبد الله إذ أتيتني لي إليك حاجة قد تراني على أي حالة أنا لست أقدر لنفسي على ضر ولا نفع، ولقد كان معي بني لي يتعاهدني في وقت صلاتي فيوضيني وإذا جعت أطعمني وإذا عطشت سقاني، ولقد فقدته منذ ثلاثة أيام فتحسسه لي رحمك الله، فقلت: والله ما مشي خلق في حاجة خلق كان أعظم عند الله أجرا ممن يمشي في حاجة مثلك فمضيت في طلب الغلام فما

---

(١) بطحاء الْوَادي حصاه اللين فِي بطن المسيل، ينظر: غريب الحديث لابن الجوزي ١/ ٧٦.

مضيت غير بعيد حتى صرت بين كثبان من الرمل فإذا أنا بالغلام قد افترسه سبع وأكل لحمه فاسترجعت وقلت: أنى لي وجه رقيق آتي به الرجل فبينما أنا مقبل نحوه إذ خطر على قلبي ذكر أيوب النبي صلى الله عليه، وسلم فلما أتيته سلمت عليه فرد على السلام فقال: ألست بصاحبي قلت بلى قال ما فعلت في حاجتي فقلت: أنت أكرم على الله أم أيوب النبي؟ قال بل أيوب النبي قلت: هل علمت ما صنع به ربه أليس قد ابتلاه بماله وآله وولده؟ قال بلى قلت: فكيف وجده؟ قال وجده صابرا شاكرا حامدا قلت: لم يرض منه ذلك حتى أوحش من أقربائه وأحبائه قال: نعم قلت فكيف وجده ربه؟ قال وجده صابرا شاكرا حامدا قلت فلم يرض منه بذلك حتى صيره عرضا لمار الطريق هل علمت قال نعم قلت فكيف وجده؟ ربه قال صابرا شاكرا حامدا أوجز رحمك الله قلت له: إن الغلام الذي أرسلتني في طلبه وجدته بين كثبان الرمل وقد افترسه سبع فأكل لحمه، فأعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر، فقال المبتلى: الحمد لله الذي لم يخلق من ذريتي خلقا يعصيه فيعذبه بالنار ثم استرجع وشهق شهقة فمات، فقلت إنا لله وانا اليه راجعون، عظمت مصيبتي رجل مثل هذا إن تركته أكلته السباع، وإن قعدت لم أقدر على ضر ولا نفع فسجيته بشملة كانت عليه وقعدت عند رأسه باكيا فبينما أنا قاعد إذ تهجم على أربعة رجال فقالوا: يا عبد الله ما حالك وما قصتك؟ فقصصت عليهم قصتي وقصته فقالوا لي: اكشف لنا عن وجهه فعسى أن نعرفه فكشفت عن وجهه فانكب القوم عليه يقبلون عينيه مره ويديه

أخرى ويقولون: بأبي عين طالما غضت عن محارم الله وبأبي وجسمه طال ما كنت ساجدا والناس نيام فقلت: من هذا يرحمكم الله فقالوا: هذا أبو قلابة الجرمي صاحب ابن عباس، لقد كان شديد الحب لله وللنبي صلى الله عليه وسلم فغسلناه وكفناه بأثواب كانت معنا وصلينا عليه ودفناه فانصرف القوم وانصرفت الى رباطي فلما أن جن على الليل وضعت رأسي فرأيته فيما يرى النائم في روضة من رياض الجنة وعليه حلتان من حلل الجنة وهو يتلو الوحي قوله تعالى:﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[الرعد: ٢٤] فقلت ألست بصاحبي قال بلى قلت أنى لك هذا قال إن لله درجات لا تنال إلا بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء مع خشية الله عز و جل في السر والعلانية"(١).

رابعا: الصبر على مشاق الدعوة إلى الله

وهذه مرتبة أخرى جليلة من مراتب الصبر_وهى مرتبة الأنبياء وورثة الأنبياء، فالدعوة إلى الله تحتاج إلى صبر طويل؛ لأنك إذا دعوت إلى الحق عاداك أهل الباطل، وإذا دعوت إلى الخير عارضك أهل الشر، واذا دعوت إلى الصلاح وقف في طريقك أهل الفساد، فلابد أن تحدث المعركة وبين المبطلين وأعداء الله، ولذلك قال الله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا

(١) الثقات، لابن حبان٦/٥.

لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾[الفرقان: ٣١] وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[الأنعام: ١١٢]، فالدعوة تحتاج إلى صبر طويل فالطريق ليس مفروشا بالأزهار والرياحين؛ لهذا كان الإمام ابن القيم يقول:" يا مخنث العزم أين أنت، والطريق طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمى في النار الخليل، وأضجع للذبح اسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد صلى الله عليه وسلم"(١).

ولقد ابتلى المؤمنون في مكة ابتلاء شديدا في أنفسهم وفي أهليهم وفي كل ما يعز عليهم، ومر النبي صلي الله عليه وسلم على آل ياسر عمار بن ياسر وأبيه ياسر وأمه سمية وهم يعذبون، تسلط عليهم أنواع العذاب فلم يملك عليه الصلاة والسلام إلا أن يقول لهم: صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة، وماتت أم عمار وكانت أول شهيدة في الاسلام، ومات أبو عمار تحت العذاب، وقد حوصر المسلمون في مكة ثلاث سنوات، لا يباع لهم ولا يشترى منهم حتى أكلوا أوراق الشجر، حتى دميت أشداقهم مما يأكلون، وعُذِّبَ المسلمون خلال ثلاث عشرة سنة في مكة.

---

(١) الفوائد، لابن القيم ٤١.

وجاء خباب بن الأرت إلي النبي صلى الله علية وسلم شاكيا، وكانت له مولاة من قريش تكويه بالنار كيا، قال خباب بن الأرت: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا قال: "كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون"[١]

وسائل تحقيق الصبر

إن للصبر وسائل يجب أن نعود أنفسنا عليها ومن هذه الوسائل:

أولا: الاستعانة بالله

والاتكال عليه، والرضا بقضائه، وليعلم أن ما أصابه هو خير له فعن أبي يحيى صهيب بن سنان قال: قال رسول الله: "عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له"[٢] فمن رضي فله

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٣٤٣).

(٢) رواه مسلم برقم (٥٣١٨).

الرضا، ومن تسخط فعليه السخط، وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما "ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى؛ قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي فقالت: إني أصرع وإني أتكشف، فادع الله تعالى لي؟ قال: إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك، فقالت :بل أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها"(١)

ثانيا: التأمل في كتاب الله تعالى

ففيها ما تقر به الأعين، وتسكن به القلوب، وتطمئن إليه النفوس، ولو قارن المصاب بين ما أخذ منه وما أعطي فلا مقارنة فإنه سيجد أن ما أعطي من الأجر، والثواب، أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وقفوا مع آية عظيمة في كتاب الله كفى بها واعظة ومسلية، عند وقوع المصائب وهى قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥ – ١٥٧] فقول المصاب: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ علاج ناجع من الله عز وجل لكل من أصيب

(١) رواه مسلم برقم (٤٦٧٣).

بمصيبة دقيقة أو جليلة متى ما ستشعر معناها، عن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا منها، قالت: فلما مات أبو سلمة قلت أي المسلمين خير من أبي سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت أرسل إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له فقلت: إن لي بنتا وأنا غيور فقال: أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة"(١).

وعن أبي سعيد الخدري وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه"(٢)

ثالثا: حسن التعزية للمصاب

المؤمن قليل بنفسه كثير بإخوانه، فإذا وجد هذا يعزيه، وهذا يسليه، سهلت عليه الأمور العظام، وكشف ما به من مصيبة، عن عمرو بن

---

(١) رواه مسلم برقم (١٥٢٥).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٢١٠).

حزم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة إلا كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة" (١).

ولابد من أن تكون التعزية بأسلوب حسن، وفي وقتها المناسب، ، وأن يلتزم بالهدي النبوي في التعزية، أما كثرة الأسئلة عن المصيبة فمما يؤجج الأحزان ويؤدي إلى الشكوى إلى الخلق، وهم عاجزون عن تقديم الشفاء، فيا من أصابته مصيبة فاحمد الله، وأحسن نيتك، واحتسب مصيبتك وارض بما قدر الله لك، فلعل لك عند الله منزلة لا تبلغها بعمل، فما يزال الله يبتليك بحكمته بما تكره ويصبرك على ما يبتليك به حتى تبلغ تلك المنزلة العالية من الله، فاحمد الله وكن من الصابرين؛ قال تعالى:﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الحج: ٣٤ – ٣٥]

رابعا: تذكر المصيبة العظيمة بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكل مصيبة دون مصيبتنا بموته تهون، فبموته عليه الصلاة والسلام انقطع الوحي من السماء إلى يوم القيامة، وبموته انقطعت النبوات، وبموته ظهر الفساد في البر والبحر، وتذكر ذلك تسلية وعزاء للمصائب قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر

---

(١) رواه ابن ماجه رقم برقم (١٣٠١) ، وقال عنه الألباني: حسن لغيره.

مصيبته بي فإنها من أعظم المصائب"[١]، ويقول فيما صح عنه في سنن ابن ماجه: "يا أيها الناس أيما أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري؛ فإن أحدا من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي"[٢] ، نعم إن تذكر موته صلى الله عليه وسلم وما حل بنا بفقده من أعظم المسليات للمصابين.

(١) صحيح الجامع للألباني برقم (٣٤٧).

(٢) صحيح ابن ماجه برقم (١٣٠٠).

٤. خلق الإخلاص

الإخلاص في اللغة

قال الراغب الأصفهاني:" الخالص كالصافي إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه، والصافي قد يقال لما لا شوب فيه، ويقال: خلصته فَخَلُص"(١)

الاخلاص في الإ صطلاح

قال ابن منظور:" الإخلاص في الطاعة ترك الرياء، وأخلص لله دينه أمحضه، والمُخْلَصْ الذي أخلصه الله جعله مختارا خالصا من الدنس، والمُخْلِص الذي وحد الله تعالى خالصا "(٢)، وقال ابن القيم:" الإخلاص تصفية العمل من كل شوب، فلا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس، إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم أو خدمتهم ومحبتهم وقضائهم حوائجه، أو طلب محبتهم له أو غير ذلك من العلل والشوائب التي عقد متفرقاتها: هو إرادة ما سوى الله بعمله كائنا ما كان"(٣)

---

(١) المفرداتً، للراغب الأصفهاني صـ٢٩٢.

(٢) لسان العرب، لابن منظور ٧/ ٢٦ باختصار يسير.

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم ٢/ ٩٢.

مكانة خلق الإخلاص

الإخلاص خلق كريم، وصفة من صفات المؤمنين، ومنزلة من منازل المقربين، وهو لب العبادة وروحها، وهو حقيقة الدين، ومفتاح دعوة الرسل عليهم السلام ومكانة الاخلاص من الأعمال بمنزلة الروح من الجسد، فهو أساس قبول الأعمال وردها، فهو الذي يؤدي إلى الفوز أو الخسران، وهو الطريق إلى الجنة أو إلى النار، فإن الإخلال به يؤدي إلى النار، وتحقيقه يؤدي إلى الجنة، قال الفضيل بن عياض رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى:﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[الملك: ٢]، قال: "إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السنة"(١).

وفي معنى الاخلاص قالوا: أن تكون حركات المسلم وسكناته في سره وعلانيته لله تعالى وحده، لا يخالطه فيها شيء، والمخلص: هو من لا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من عمله، وهو من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته، وقال عبد الله بن أبي جمرة: وددت لو أنه كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا، فإنه ما أوتي على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك، كل هذه الأهمية للإخلاص؛ لأن أعمال

---

(١) تفسير الثعالبي، ٩/ ٣٥٦.

القلوب هي الأساس؛ ولأن القلب ملك الجوارح، وهي له تبع، فإن صلح القلب صلحت الجوارح كلها، وإن فسد القلب فسدت الجوارح كلها.

والإخلاص لله عز وجل من أجل أعمال القلوب، وهو من أشق الأمور على النفوس؛ ولهذا قال سفيان الثوري رحمه الله: "ما عالجت شيئا علي أشد من نيتي؛ إنها تتقلب علي؛ فالقلوب كثيرة التقلب والتحول في قصودها ونياتها، وإذا كان الأمر كذلك فما أحوجنا، إلى الإلحاح على الله، والتضرع بين يديه؛ بأن يوفقنا للإخلاص في أعمالنا وأقوالنا، ويجنبنا الرياء والسمعة في جميع أعمالنا.

آيات قرآنية عن الإخلاص

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾ [البينة: ٥]، قال الإمام الشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي: جاعلين دينهم خالصا له سبحانه، أو جاعلين أنفسهم خالصة له في الدين، وهذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية في العبادات؛ لأن الإخلاص من عمل القلب، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ ﴾[الزمر: ١١] قال الإ مام ابن كثير: "أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وأمرت لأن أكون أول المسلمين قال السدي: يعني من أمته صلى الله عليه وسلم.

والآيات في باب الإخلاص كثيرة ومنها قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥ ﴾ [غافر: ٦٥] و قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩ ﴾ [الأعراف: ٢٩] وغيرها من الآيات.

أحاديث نبوية عن الإخلاص

عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأرضاه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " **إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه** "[1]، ما أعظم هذا الحديث عند أهل الإخلاص وما أروعه في قلوب المؤمنين المخلصين؛ لأن الإخلاص حقيقة الدين ومفتاح دعوة المرسلين، ولأهمية النية فقد جعل معظم من ألف في الحديث، حديث النية في مقدمة كتبهم؛ حتى يتنبه المسلم إلى نيته وضرورة إصلاحها وابتغاء بعمله وقصده وجه الله تعالى.

---

(١) صحيح البخاري برقم (١).

وعن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: قال الله عز وجل: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملا أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك"[١]، وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة** "[٢] .

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله**"[٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصا، إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر**"[٤] .

والإخلاص أمره عظيم جدا فوجوده في العمل الصالح قد يغفر الله به للعبد كبائر الذنوب كما في حديث البطاقة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " **إن الله سيخلص**

---

(١) صحيح مسلم برقم (٥٣٠٠).

(٢) رواه أبو داوود برقم (٣٦٦٤)، وصححه الألباني.

(٣) صحيح البخاري برقم (١٢٠).

(٤) رواه الترمذي برقم (٣٥٩٠) ، وحسنه.

رجلا من أمتي، له تسعة وتسعون سجلا، كل سجل مد البصر، فيقول له: أتنكر من هذا شيئا أظلمك كتبتي الحافظون؟، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندي حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فتثقل البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء "[1].

الصالحون والإخلاص

ولعظم الإخلاص وأهميته فقد كان الصالحون من هذه الأمة من أشد الناس خوفا على أعمالهم أن يخالطها الرياء أو يشوبها شائبة الشرك، وقد كانوا رحمهم الله يجاهدون أنفسهم في أعمالهم وأقوالهم لتكون خالصة لوجه الله جل وعلا وإليكم بعضا من قصص إخلاصهم علَّها أن تكون نبراسا نحتذي به في أعمالنا وأقوالنا، هذا أيوب السختياني رحمه الله. كان وهو في حلقة العلم إذا حدث بحديث النبي صلى الله عليه وسلم، يشتد عليه البكاء من خشية الله فكان يشد العمامة على عينه ويقول: ما أشد الزكام، حرصا منه ألا يعلم الناس ببكائه وخالد بن معدان كان رحمه الله: إذا عظمت حلقته من الطلاب قام خوف الشهرة.

---

(١) السلسلة الصحيحة برقم (٢٥٦٣).

وأعجب من ذلك داود بن أبي هند رحمه الله صام أكثر من عشرين سنة، ولم يعلم به أهله كان يأخذ طعامه ويخرج إلى السوق فيتصدق به في الطريق فأهل السوق يظنون أنه قد أكل في بيته وأهل البيت يظنون أنه قد أكل طعامه في السوق!! فانظروا كيف ربوا أنفسهم على الإخلاص وحملوها على إخفاء الأعمال الصالحات رغبة في ما عند الله من الثواب فأين بعض المسلمين اليوم الذي يحدث بجميع أعماله ! ولربما لو قام ليلة من الدهر لعلم به الأقارب والجيران ولو تصدق بصدقة لعلمت به الأمة في شرقها وغربها ولحدَّثَ بها كل من يلقاه فشتان بين حال المخلصين الذين يريدون بأعمالهم وأقوالهم وجه الله وبين من يريد بعمله ثناء الناس وحطام.

ثمرات الإخلاص

فمن حرص على الإخلاص في أقواله وأعماله الصالحة وأخفاها عن الآخرين نال من الفضائل أعظمها ومن الثمرات أجلها ومن ذلك:

أولا: أن الله تعالى يحفظ عبده المخلص من الآفات المهلكة، وينجيه من مضلات الفتن، قال سبحانه عن يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[يوسف: ٢٤]

ثانيا:المخلص يحفظه الله من تسلط الشيطان عليه قال تعالى حكاية عن إبليس:﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]

ثالثا: حفظ القلب من الخيانة والحقد، قال النبي صلى الله عليه وسلم " ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مؤمن إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم؛ فإن دعاءهم يحيط من ورائهم "(١)

رابعا: من أخلص في عمله، ضاعف الله له الحسنات والدرجات، فقد يكون العمل في ذاته يسيرا لكن يعظم أجره بالنية الصالحة، فعن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في فِيِّ امرأتك**"(٢). قال ابن المبارك رحمه الله: رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية.

خامسا: حفظ الأمة وتحقيق النصر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم** "(٣) .

---

(١) رواه البزار، وهو في صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) صحيح البخاري برقم (١٢١٣).

(٣) صحيح الترغيب والترهيب.

سادسا: من أعظم ثمرات الإخلاص أن الله عز وجل يفرج على المخلص الشدائد وينجيه من الكروب ويزيل عنه الهموم وكلكم تعلمون حديث الثلاثة الذين أواهم المبيت الي غار فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم فقال الأول منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بي في طلب شيء يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج.

وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي فأردتها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألمت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها، وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين

فقال: يا عبد الله أدِّ إلي أجري فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون" (١).

سابعا: أن العبد بالإخلاص يدرك الأجر على عمله وإن عجز عنه بل ويصل لمنازل الشهداء والمجاهدين وإن مات على فراشه، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال "**إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم قالوا يا رسول الله وهم بالمدينة قال " وهم بالمدينة ، حبسهم العذر**"(٢) .

من قصص المخلصين

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال رجل لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون تصدق على سارق فقال: اللهم لك الحمد لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانية فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على زانية فقال: اللهم لك الحمد على زانية لأتصدقن

---

(١) صحيح البخاري برقم (٢١١١).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٠٧١).

بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي غني فأصبحوا يتحدثون تصدق على غني فقال: اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غني، فأتي فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله"[1]

وفي كتب التاريخ قصة رائعة ذات معان رائقة وردت عن أحد الزاهدين يسمى بأحمد بن مسكين" وكان من التابعين، قال: كان في البلدة رجل يدعى أبا نصر الصياد، يعيش مع زوجته وابنه في فقر شديد، مشى في الطريق ذات يوم مهموما مغموما، يسأل الله تعالى الفرج والرزق الحلال فزوجته وابنه يتضوران جوعا فمر على شيخه أحمد بن مسكين، وقال له: أنا متعب يا سيدي، فقال له اتبعني إلى البحر فانطلقا إليه، وقال له الشيخ:" صلِّ ركعتين على نية التيسير" واسأل الله تعالى الرزق الحلال الطيب فصلى، ثم قال له: "سم الله "فكل شيئ بأمر الله فقالها ثم رمى الشبكة، فخرجت بسمكة عظيمة قال له :"بعها واشتر بثمنها طعاما لأهلك"، فانطلق إلى السوق يبيعها، واشترى فطيرتين إحداهما باللحم والأخرى بالحلوى وقرر أن يعود إلى الشيخ فيقدم إحداهما له اعترافا بصنيعه، رد الشيخ الفطيرة قائلا: هي لك ولعيالك، ثم أردف: " لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة "، وفي الطريق إلى بيته قابل امرأة

---

(١) صحيح البخاري برقم (١٣٣٢).

تبكي من الجوع ومعها طفلها، فنظرا إلى الفطيرتين في يده وقال في نفسه هذه المرأة وابنها مثل زوجتي وابني يتضوران جوعا فماذا افعل؟ ونظر إلى عيني المرأة فلم يحتمل رؤية الدموع فيهما، فقدمهما لها قائلا: الفطيرتان لكما، ظهر الفرح والسرور على محياها، وسعد ابنها سعادة رقصت لها أسارير وجهه، وعاد أبو نصر يفكر بولده وزوجته، ما إن سار حتى سمع رجلا ينادي من يدل على أبي نصر الصياد؟ فدله الناس على الرجل، فقال له إن أباك كان قد أقرضني مالا منذ عشرين سنة ثم مات، خذ يا بني هذه الثلاثين ألف درهم فهو مال أبيك، يقول أبو نصر الصياد: وتحولت غنيا بإذن الله تعالى وكثر مالي، وملكت البيوت وفاضت تجارتي، وصرت أتصدق بالألف درهم في المرة الواحدة في شكر الله تعالى، ومرت الأيام، وأنا أكثر من الصدقات حتى أعجبتني نفسي!!.

وفي ليلة من الليالي رأيت في المنام أن القيام قد قامت، وأن الميزان قد وضع ونادى مناد: أبا نصر الصياد هلم لوزن حسناتك وسيئاتك، فوضعت حسناتي ووضعت سيئاتي، فرجحت السيئات، فقلت: أين الأموال التي تصدقت بها؟ فوضعت الأموال، فإذا تحت كل ألف درهم شهوة نفس أو إعجاب بصنيع كأنه لفافة من القطن لا تساوي شيئا، ورجحت السيئات وبكيت بكيت حتى كادت نفسي تذهب وأحشائي تتقطع وقلت ما النجاة؟ وسمعت المنادي يقول: هل بقى له من شيء؟ فأسمع الملك يقول: نعم بقيت له رقاقتان" فطيرتان"، وتوضع الرقاقتان في كفة

الحسنات، فتهبط كفة الحسنات حتى تساوت مع كفة السيئات، فبقيت خائفا وأسمع المنادي مرة أخرى يقول: هل بقى له من شيء؟ فأسمع الملك يقول: بقى له شيء قلت: ما هو؟، قيل له: دموع المرأة حين أعطيتها الرقاقتين، فوزنت الدموع، فإذا بها كالحجر الصقيل وزنا، فثقلت كفة الحسنات، ففرحت فرحا شديدا، وأسمع المنادي كرة أخرى يقول: هل بقى له من شيء؟ فقيل: نعم ابتسامة الطفل الصغير حين أعطيت أمه الرقاقتان، وترجح كفة الحسنات وترجح وترجح، وأسمع المنادي يقول: لقد نجا لقد نجا فاستيقظت من النوم فزعا أقول: ما قاله لي أحمد بن مسكين حين رد إلي إحدى الفطيرتين: لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة[1] .

الوسائل المعينة على الاخلاص

أولا: أكثر من الاستعانة بالله، وألح عليه بالدعاء أن يرزقك الاخلاص قبل العمل وأثناء العمل وبعد العمل، واستعذ بالله من شر نفسك ومن الرياء، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أيها الناس، اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل"، فقال له من شاء الله أن يقول:

([1]) وحي القلم، للرافعي ٢/ ١٥٧.

وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: "قولوا اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه، وستغفرك لما لا نعلمه"(١)

ثانيا: معرفة الله وعظمته وقدرته وفضله وهو من أعظم الوسائل المعنية على تحقيق الإخلاص قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور: ٢١] ، فلا ينظر للخلق من عرف الله بحق.

ثالثا: معرفة النفس أنها جاهلة ظالمة طبعها الكسل وحب الشهوات، وحب التصدر والظهور، فرحم الله رجلا لم يغره كثرة ما يرى من الناس، ابن آدم إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك، فاجعل عملك خالصاً لله وحده.

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٦).

٥ـ خلق الثبات

الثبات في اللغة

قال الراغب الأصفهاني:" الثبات ضد الزوال، ومنه قوله الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٥] أي اثبتوا في الحرب، وقوله تعالى: ﴿لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] ، أي: يثبطوك ويحيروك"[١]

الثبات في الاصطلاح

"الثبات هو: عدم احتمال الزوال بتشكيك المشكك، والثابت هو الموجود الذي لا يزول بتشكيك المشكك، والإثبات عن القراء ضد الحذف"[٢] .

والثبات يعني الاستقامة على الهدى، والتمسك بالتقى، وحمل النفس على سلوك طريق الحق والخير، وهو الالتزام بالمبادئ والقيم، والمداومة في سلوك طريق الخيرات، فقد روى مسلم في صحيحه عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك " [٣].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني صـ ١٧١.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي ١/ ٩٨.

(٣) صحيح مسلم برقم (٣٥٤٤).

مكانة خلق الثبات

إن الله جل وعلا أسبغ على العباد نعما ظاهرة وباطنة، لا تعد ولا تحصى، ومن تلك النعم نعمة الهداية إلى دين الإسلام، وهي أنفس النعم وأعظمها، من حازها فهو السعيد، ومن حرمها فهو الشقي، قال تعالى ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣]، وهذه النعمة من أكثر النعم عرضة للزوال، لهذا طلب الله من عباده الصالحين أن يسألوه الثبات، ولذا كانت الخشية من الزيغ شأن أولي الألباب ونهج أولي النهى وسبيل الراسخين في العلم، الذين يبتغون إلى ربهم الوسيلة، ويزدلفون إليه، يرجون رحمته ويخافون عذابه.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى تضرع عباده وسؤالهم إياه التثبيت على الحق والسلامة من الزيغ في قوله عز وجل:﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٨] وكان من دعاء أصحاب طالوت أن يثبتهم الله في أرض المعركة أثناء مواجهتهم أصحاب جالوت الأكثر منهم عدد وعده فقال الله عنهم: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٠] وكان من دعاء الربانيين أن قالوا: ﴿ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا

فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [آل عمرن: ١٤٧]، وقال مخاطبا عباده المؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾[إبراهيم: ٢٧].

ولأهمية الثبات على الحق، والخشية من تقلب القلوب وتغير الأحوال، كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من دعاء ربه أن يثبته على هذا الدين، فقد روى الترمذي عن شهر بن حوشب قال قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك قالت: كان أكثر دعائه " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك "، قالت قلت يا رسول الله ما لأكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قال " يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ "[١].

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في صلاته: كما عند مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر، فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجال"[٢]

---

(١) صحيح الترمذي برقم (٢٧٩٢).

(٢) صحيح ومسلم برقم (٩٢٦).

وفي هذا الزمان كثرت الابتلاءات والفتن بكل أنواعها، وتنوعت وسائل الإضلال والإفساد والمحن حتى أصبح القابض على دينه كالقابض الجمر، والثبات على الدين الحق حتى الممات ليس بالأمر اليسير إلا على من يسره الله عليه، وخاصة في زمن الفتن، وتقلب الأحوال؛ فقد يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا؛ يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا"(١).

أنواع الفتن

الأولى: الفتنة في الدين

قال تعالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[البروج: ١٠] قال ابن كثير:" وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله، عز وجل، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدودا وأججوا فيه نار، وأعدوا لها وقودا يسعرونها به، ثم

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٦٩).

أرادوهم فلم يقبلوا منهم، فقذفوهم فيها"[١] ، وفي صحيح البخاري عن خباب بن الأرت قال شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال " قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، فما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون "[٢]، وما هي إلا سنوات قليلة حتى مات رسول صلى الله عليه وسلم فظهرت بوادر الردة عند بعض القبائل فثبت الله المسلمين حينئذ بثبات أبي بكر الصديق رضي الله عنه والصحابة الآخرين رضي الله عنهم.

والحديث عن الثابتين بعد رسول الله إلى يومنا هذا يطول، واقرأوا إن شئتم عن ثبات عبد الله بن حذافة السهمي أمام ملك الروم، وعن ثبات أبي مسلم الخولاني أمام الأسود العنسي، وعن ثبات الأوزاعي أمام أحد الأمراء العباسيين، وعن ثبات الأمام أحمد في محنة خلق القرآن، وعن ثبات ابن تيمية، وابن الأمير الصنعاني والشوكاني أمام المبتدعة من وأصحاب المذاهب المنحرفة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ٣٦٦.

(٢) صحيح البخاري برقم (٦٤٣٠).

ثانيا: الفتنة في الاموال والأولاد

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾ [التغابن: ١٥] قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات:" يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد فتنة، أي: اختبار وابتلاء من الله لخلقه؛ ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، جاء في مسند الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب، فجاء الحسن والحسين، رضي الله عنهما، عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: "صدق الله ورسوله، إنما أموالكم وأولادكم فتنة، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما، وسأل رجل ابن عباس عن هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [التغابن: ١٤] قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَإِن تَعۡفُواْ

وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾"[1]، وقال صلى الله عليه وسلم:" إن الولد مبخلة مجبنة مجهلة محزنة "[2] .

ثالثا: فتنة الممات

علَّمَ النبي صلى الله عليه وسلم أمته أن تتعوذ بالله من فتنة المحيا والممات، فقد جاء عند مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر، فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجال".

ذلك أن غاية المؤمن في حياته أن يوفقه الله لطاعته، وأن يثبته على ذلك حتى يلقاه كما قال تعالى:﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فيثبت الله أهل الإيمان في الحياة الدنيا بأن يوفقهم للأعمال الصالحة أما عند الممات، فإن الله يوفقهم للثبات ، فينطقون بالشهادتين، وقد يُرَى من هؤلاء تهلل وجه أو طيب رائحة ونوع استبشار عند خروج أرواحهم، وهذا مثال لواحد ممن وفقهم الله للثبات في نازلة الموت، إنه أبو زرعة الرازي أحد أئمة أهل الحديث وقد ذكر الإمام الذهبي قصته في سير أعلام النبلاء وخلاصة قصته أنه لما حضرته

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ١٣٩،باختصار.

(٢) صحيح الجامع برقم (٣٧٥٣٩).

سكرات الموت استحى من في جواره أن يلقنوه الشهادتين فاهتدوا إلى حيلة، فقالوا تعالوا نذكر حديث النطق بالشهادتين، فقال: حدثنا بندار حدثنا أبو عاصم، عن عبد الحميد بن جعفر، عن صالح، لم يجاوز، والباقون سكتوا، فقال أبو زرعة: حدثنا بندار حدثنا أبو عاصم حدثنا عبد الحميد عن صالح ابن أبي غريب عن كثير بن مرة عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة" [١] " وخرجت روحه رحمه الله. [٢].

رابعا: فتنة الدجال

وهي أعظم فتن المحيا التي تأتي على الناس منذ الخلق إلى قيام الساعة، قال صلى الله عله وسلم " يا أيها الناس إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال و إن الله عز و جل لم يبعث نبيا إلا حذر أمته الدجال"[٣].

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالثبات أمام هذه الفتنة، فعن النواس بن سمعان قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظننناه في طائفة النخل فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال:" ما شأنكم " قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة

---

(١) صحيح الجامع برقم (٣١١٦).

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي١٢/ ٥٠٧.

(٣) صحيح الجامع برقم (٧٨٧٥).

فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: " غير الدجال أخوفني عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم إنه شاب قطط عينه طافئة كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف إنه خارج خلة بين الشأم والعراق فعاث يمينا وعاث شمالا يا عباد الله فاثبتوا "(١).

وسائل الثبات

إليكم بعضا من الوسائل والأسباب التي تعين المسلم على الثبات على دين الله تعالى:

أولا: الاستعانة بالله تعالى

فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله الله فهو المخذول، فاستعن بالملك أن يثبت قلبك، وأن يثبت قدمك على الطريق، فليس للعبد غناء عن ربه طرفة عين، فإن لم يثبته ربه ضل وهلك وقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٣ – ٧٤]، قال الإمام ابن عاشور في تفسير هذه الآية:" إن المشركين راودوا النبي

(١) رواه مسلم برقم (٥٢٢٨).

صلى الله عليه وسلم أن لا يسويهم مع من يعدونهم منحطين عنهم من المؤمنين المستضعفين عندهم مثل: بلال، وعمار بن ياسر، وخباب ، وصهيب، وأنهم وعدوا النبي إن هو فعل ذلك؛ بأن يجلسوا إليه ويستمعوا القرآن حين لا يكون فيه تنقيص آلهتهم، وأن رسول الله هم بأن يظهر لهم بعض اللين رغبة في إقبالهم على سماع القرآن لعلهم يهتدون"[1]، ومع ذلك نهاه ربه أن يميل إليهم هذ الميل اليسير في نظر البعض، وأمره بالثبات على ما هو عليه من أمر الدعوة وأن يستعين با الله على ذلك' فالاستعانة بالله مطلوبة لحصول الثبات على دين الله تعالى.

ثانيا: تدبر القرآن

القرآن العظيم من الوسائل الهامة للثبات على هذا الدين؛ لأنه حبل الله المتين، والنور المبين، من تمسك به عصمه الله، ومن اتبعه أنجاه الله، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، نص الله على أن الغاية التي من أجلها أنزل هذا الكتاب منجما مفصلا هي التثبيت، فقال تعالى في معرض الرد على شبه الكفار: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ ﴾[الفرقان: ٣٢] قال سيد قطب رحمه الله تعالى:" لقد جاء القرآن بمنهاج كامل شامل للحياة

([1]) تفسير ابن عاشور ١٤/ ٤٤٨)

كلها، وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة، وهي في طريق نشأتها ونموها، ووفق استعدادها الذي ينمو يوما بعد يوم في ظل المنهج التربوي الإلهي الدقيق، ومن أجل هذا كله نزل القرآن مُنجَّما ومفصلا، يبين أول ما يبين عن منهجه لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم ويثبته على طريقه؛ ويتتابع على مراحل الطريق رتلا بعد رتل، وجزءا بعد جزء "[1] ، وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النحل: ١٠٢] قال الإمام الألوسي في تفسيره لهذه الآية:" قوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، أي على الإيمان بما يجب الإيمان به لما فيه من الحجج القاطعة والأدلة الساطعة أو على الإيمان بأنه كلامه تعالى فانهم إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح رسخت عقائدهم واطمأنت به قلوبهم"[2]. فالإقبال على كتاب الله عز وجل تلاوة وتدبرا وعملا من أسباب الثبات على دين الله تعالى.

ثالثا: ذكر الله

وهو من أعظم أسباب الثبات وقد قرن الله تعالى بين الذكر والثبات في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٥/ ٣١٧.

(٢) روح المعاني، للألوسي ١٠/ ٣٠٢.

كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥] ، قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية:" أي: اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد؛ وقيل المعنى: اثبتوا بقلوبكم واذكروا بألسنتكم فإن القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان، وفي الآية دليل على مشروعية الذكر في جميع الأحوال، حتى في هذه الحالة التي ترجف فيها القلوب ، وتزيغ عندها البصائر"(١).

فجعل الله ذكره من أعظم ما يعين على الثبات في مواطن الجهاد، وقد استعان يوسف عليه السلام بذكر الله تعالى، في الثبات أمام فتنة المرأة ذات المنصب والجمال لما دعته إلى نفسها وذكر الله قائلا: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾[يوسف: ٢٣]، فتكسرت أمواج الشهوات على أسوار وذكره لله تعالى، وكذا تكون فاعلية الأذكار في تثبيت المؤمنين.

رابعا: قراءة قصص الأنبياء وتدبر سيرهم

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠]، قال لإمام ابن كثير في تفسير لهذه الآية:" وكل أخبار نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أممهم،

---

(١) فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٩١.

وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين كل هذا مما نثبت به فؤادك يا محمد أي: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة"(١)، فالتأمل في قصص الأنبياء من عوامل الثبات على دين الله عزوجل.

خامسا: الدعاء

من صفات عباد الله المؤمنين أنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء أن يثبتهم، وقد وذكر الله من صفات الربانيين أنهم يسالون الله الثبات في مواجهة أعدائهم في أرض المعركة كما قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦] قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:" لما وصف الله الربانيين برباطة الجأش، وثبات القلب، وصفهم بعد ذلك بما يدل على الثبات من أقوال اللسان التي تجري عليه عند الاضطراب والجزع، أي أن ما أصابهم لم يخالجهم بسببه تردد في صدق وعد الله، ولا بدر منهم تذمر، بل علموا أن ذلك لحكمة يعلمها سبحانه، لذلك ابتهلوا إليه عند نزول المصيبة بقولهم:﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦٣.

ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا ﴾ خشية أن يكون ما أصابهم جزاء على ما فرط منهم، ثم سألوه الثبات والنصر، فقالوا: ﴿ وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فلم يصدهم ما لحقهم من الهزيمة عن رجاء النصر"(١).

وإنها لنكسة عظيمة، ومصيبة كبيرة، أن يترك المسلم طريق الحق ولا يثبت عليه، ليسلك طريق الباطل لشبهة عرضت له أو لشهوة انحرفت به، فدعاء الله تعالى سبب من أسباب الثبات على دين الله عز وجل.

سادسا: التربية الإيمانية

ذلك أن التربية الإيمانية الواعية المتدرجة تحيي القلب والضمير بالخوف والرجاء والمحبة، المنافية للجفاف الناتج من البعد عن نصوص القرآن والسنة، والعكوف على أقاويل الرجال، ولكي ندرك أهمية هذا العنصر من عناصر الثبات، فلنعد إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسائل أنفسنا: ما هو مصدر ثبات صحابة النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، إبان فترة الاضطهاد؟ كيف ثبت بلال وخباب ومصعب وآل ياسر وغيرهم من المستضعفين، وحتى كبار الصحابة في حصار الشعب وغيره، هل يمكن أن يكون ثباتهم بغير تربية عميقة من مشكاة النبوة، صقلت شخصياتهم

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣/ ٢٤١.

سابعا: الصحبة الصالحة:

فالصحبة الصالحة والبحث عن الصالحين، والالتفاف حولهم خير معين على الثبات على الدين؛ لأن الجليس يتأثر بجليسه، قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾ [الكهف: ٢٨] ، قال سيد قطب رحمه الله تعالى:" اصبر نفسك مع هؤلاء، صاحبهم وجالسهم وعلمهم، ففيهم الخير، وعلى مثلهم تقوم الدعوات، فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة؛ ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع؛ ومن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع، وليتجروا بها في سوق الدعوات تشترى منهم وتباع! إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله خالصة له، لا تبغي جاها ولا متاعا ولا انتفاعا، إنما تبتغي وجهه وترجو رضاه" (١).

فليحرص المسلم على صحبة الصالحين فهم خير معين على الثبات أوقات الفتن والأزمات.

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٥/ ٦١.

٦ـ خلق العفة

العفة في اللغة

قال ابن فارس:" "عفَّ" العين والفاء أصلان صحيحان: أحدهما الكف عن القبيح، والآخر دال على قلة شيء، **فالأول**: العفة: الكف عما لا ينبغي. ورجل عف وعفيف، وقد عف يعف "عفة" وعفافة وعفافا، والأصل **الثاني**: العفة: بقية اللبن في الضرع، وهي أيضا العفافة"[١]

العفة في الاصطلاح

قال الراغب الأصفهاني:" العفة: حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة، والمتعفف: المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر، وأصله: الاقتصار على تناول الشيء القليل الجاري مجرى العفافة، والعفة، أي: البقية من الشيء"[٢]

وقال الجرجاني :" العفة هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذي هو إفراط هذه القوة، والخمود الذي هو تفريطها فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة"[٣]

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٣/٤.

(٢) المفردات، للراغب الأصفهاني ٥٧٣.

(٣) التعريفات، للجرجاني١٩٥.

مكانة خلق العفة

إن العفة شيمة نبيلة، وحلية كريمة جليلة، تتصف بها النفوس الأبية العلية، وتزرع منها الأعمال والأخلاق الزكية البهية، وإن أهل العفة يعيشون في رياض وارفة من الطهر والسعادة، وأما أهل الرذيلة فهم غارقون في الخطيئة وقابعون في سجون الغموم والقلق والخوف، فلذاتهم عابرة، وشقاوتهم دائمة، ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

ولأهمية الحفاظ على العفة، وخطر التفريط فيها كان الحفاظ على العِرضْ من الكليات الخمس التي جاء الإسلام للمحافظة عليها وحراستها من كل صائل عليها، وجعل الإسلام القتل من أجل صيانة الأعراض والحفاظ عليها شهادة، فعن سعيد بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" من قاتل دون ماله فقتل فهو شهيد ومن قاتل دون دمه فهو شهيد ومن قاتل دون أهله فهو شهيد"[١] .

أما الكرماء في حفظ أعراضهم، والمتساهلون في الذود عنها فهم أهل دياثة ودناءة، ينتهي بهم هذا الطريق المعوج إلى غضب الله تعالى والحرمان من دخول الجنة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **ثلاثة لا يدخلون الجنة ولا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة المتشبهة**

---

(١) رواه النسائي برقم (٤٠٩٤)، وقال عنه الألباني صحيح.

بالرجال، والديوث فقالوا: يا رسول الله، ما الديوث؟ ، قال: " **الذي لا يبالي من دخل على أهله** " **وفي رواية:** " **الذي يقر في أهله الخبث** " (١).

الإسلام يدعو إلى التخلق بالعفة

إن دين الإسلام دين العفاف والطهارة؛ لأنه مصلحة في عاجل الناس وآجلهم، وإن بقاءهم في سلام مرهون ببقاء العفاف فيهم، والناظر في هذه الشريعة المحمدية يرى أن الإسلام يدعو إلى التمسك بالعفاف، والحفاظ عليه، والإسلام لا يحارب الفطرة الجنسية، ولكنه يوظفها التوظيف الصحيح، فقد دعا الإسلام إلى الزواج؛ لأنه أعظم وسيلة لقضاء الوطر من غير خطر على البشر، فقال تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣ ﴾ [النساء: ٣]، وحث في الزواج على اختيار الزوج والزوجة الصالحين، فالعفيف هو الذي يقبل به أولياء المرأة زوجا لموليتهم، والعفيفة هي التي يقبلها المسلم العاقل زوجة له، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" تنكح المرأة لأربع لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك"(٢)، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إذا

---

(١) صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب برقم (٢٣٦٦) وصَحِيح الْجَامِع برقم (٣٠٥٢).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٧٧٠)

خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض"[١].

العفة والزواج

والإسلام يدعو عند العجز عن الزواج إلى الصبر والصوم طلبا للعفة، قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣]، وأرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى الوسائل التي تعين على العفة فأمر القادرين على مؤنة النكاح بالتزوج، فقد روى الإمام مسلم[٢] عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج" قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث:" واختلف العلماء في المراد بالباءة هنا على قولين يرجعان إلى معنى واحد **القول الأول** وهو أصحها: أن المراد معناها اللغوي وهو الجماع، فتقديره: من استطاع منكم الجماع لقدرته على مؤنه وهي مؤن النكاح فليتزوج، ومن لم يستطع الجماع لعجزه عن مؤنه فعليه بالصوم ليدفع شهوته، ويقطع شر منيه، كما يقطعه الوجاء، والخطاب موجه للشبان الذين هم مظنة شهوة النساء، ولا ينفكون عنها غالبا.

---

(١) سنن الترمذي برقم (١٠٨٤) وقال عنه الالباني حديث: حسن.

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٤٨٥).

والقول الثاني: أن المراد هنا بالباءة مؤن النكاح، سميت باسم ما يلازمها وتقديره: من استطاع منكم مؤن النكاح فليتزوج، ومن لم يستطعها فليصم؛ ليدفع شهوته، والذي حمل القائلين بهذا أنهم قالوا: قوله صلى الله عليه وسلم: " ومن لم يستطع فعليه بالصوم " قالوا: والعاجز عن الجماع لا يحتاج إلى الصوم لدفع الشهوة، فوجب تأويل الباءة على المؤنة، وأجاب الأولون بما قدمناه في القول الأول، وهو أن تقديره: من لم يستطع الجماع لعجزه عن مؤنه، وهو محتاج إلى الجماع فعليه بالصوم، والله أعلم"(١).

وقد ذهب الفقهاء إلى أنه يجب على من يجد الأهبة وتتوق نفسه إلى الجماع ويخاف الوقوع في الزنا أن يتزوج؛ لأن اجتناب الزنا واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ففي صحيح البخاري عن حكيم بن حزام رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول وخير الصدقة عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله"(٢).

---

(١) ينظر: شرح صحيح مسلم، للنووي ٥/٧١.

(٢) صحيح البخاري برقم (١٣٣٨).

العفة وغض البصر

عند عدم قدرة الإنسان على الزواج فإن الإسلام يأمر المسلم والمسلمة بغض البصر وعدم إطلاقه؛ لأن البصر رائد الفجور وطريق الشرور، والإسلام يدعو الرجل إلى الغيرة على حرماته ونسائه،، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣٠- ٣١] قال الإمام البقاعي:" ولما كان الأمر في غاية العسر، قال:﴿مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ بإثبات من التبعيضية إشارة إلى العفو عن النظرة الأولى، وأن المأخوذ به إنما هو التمادي، ولما كان البصر بريد الزنى قدمه، ولما كان حفظ الفرج لخطر المواقعة أسهل من حفظ البصر اختبار حذف ﴿مِنْ﴾ لقصد العموم فقال تعالى:﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾أي: عن كل حرام من كشف وغيره ولم يستثن الزوجة وملك اليمين استغناء عنه بما سبق في المؤمنون؛ ولأن المقام للتهويل في أمر للحفظ والتشديد، ورغب في ذلك بتعليله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر العالي العظيم من كل من الغض والحفظ الذي أمرتهم به ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾أي أقرب إلى أن ينموا ويكثروا ويطهروا حسا ومعنى، ويبارك لهم"[1].

(١) نظم الدرر، للبقاعي١٣/٢٥٤.

قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: يا رسول الله، لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتعجبون من غيرة سعد! والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش"(١)، فالرجال أساس عفة النساء، فإذا عفوا وغاروا حافظت النساء على عفافهن، وإذا فحشوا فالنساء تبع لهم، عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" بروا آباءكم تبركم أبناؤكم وعفوا تعف نساؤكم" (٢).

وحفاظاً على العفاف فإن الإسلام يدعو الأبوين إلى تربية البنين والبنات ابتداء بالقدوة الحسنة الأب للأبناء، والأم للبنات، وذلك بالمراقبة والمتابعة، فاليوم جيوش الفاحشة والرذيلة ومحاربوا العفاف والفضيلة يصلون إلى البيوت من غير سلاح عبر القنوات الفضائية، ومواقع النت الإباحية، وصفحات التواصل الاجتماعية، والمكالمات الهاتفية، ورسائل الجوالات الوقحة، فلينظر الأب والأم ماذا يعرض في البيت، وماذا يفعل الأبناء والبنات قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ ﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨١٩).

(٢) مجمع الزوائد، للهيثمي وقال عنه: رواه الطبراني في الاوسط ورجاله رجال الصحيح غير شيخ للطبراني.

العفة وحظ المرأة منها

وحفاظا على عفة المرأة وسلامتها دعاها الإسلام إلى لزوم بيتها، وأن لا تكون خراجة ولاجه إلا لحاجة قال تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[الأحزاب: ٣٣]. قال سيد قطب في ظلاله حول هذه الآية:" وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقا، إنما هي إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل في حياتهن، وهو المَقَرْ وما عداه استثناء طارئا، إن خروج المرأة لتعمل قد تبيحها الضرورة، أما خروج المرأة لغير العمل، كخروجها للاختلاط ومزاولة الملاهي، والتسكع في النوادي والمجتمعات فذلك هو الارتكاس في الحمأة الذي يرد البشر إلى مراتع الحيوان!"(١).

وحفظا للمرأة من مفترسي البشر نهاها الإسلام عن إبداء زينتها لغير محارمها، فقال تعالى:﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] قال الإمام أبو حيان في تفسيره لهذه الآية:" وذكر الزينة دون مواضعها مبالغة في الأمر بالتصون والتستر؛ لأن هذه الزينة واقعة على مواضع من الحسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء وهي الساق والعضد والعنق والرأس والصدر والآذان،

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٧٩/٦ باختصار.

فنهى عن إبداء الزينة نفسها ليعلم أن النظر لا يحل إليها لملابستها تلك المواقع بدليل النظر إليها غير ملابسة لها [١] .

كما نهى الإسلام المرأة عن التبرج والسفور وإبداء المفاتن والتلاعب بالحجاب، وعد اختيار الملابس والأحذية والحقائب التي تجذب أعين الناظرين فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩ ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ونهاها عن الخضوع بالقول وترقيق الصوت وتمليحه لينال إعجاب الرجال، فقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، ونهاها عن الخلوة برجل ليس زوجا ولا محرما لها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم"[٢] ونهى الإسلام عن دخول الرجال الغرباء على المرأة ولو كانوا من أقرباء الزوج، فعن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" إياكم والدخول على النساء فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحمو قال الحمو الموت"[٣]؛ لأن ذلك مظنة للخلوة

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ٣٣/٨.

(٢) صحيح البخاري برقم (١٠٢٤).

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٨٣١).

بها، ومن الخلوة ما يحدث في أماكن العمل بين الموظف والموظفة منفردين.

ثمرات خلق العفة في الدنيا والآخرة

أولا: الرفعة وطيب السمعة بين الناس

فيوسف عليه السلام حينما راودته امرأة العزيز عن نفسه امتنع عن الاستجابة لمطالبها واعتصم بالعفة والعفاف: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: ٢٣]، فرفع الله رفع شأنه، وجعله على خزائن مصر، وما عرض عليه بالحرام ناله بالحلال.

ثانيا: صلاح البيوت وسلامتها

فمن حافظ على أعراض الناس دافع الله عن عرضه، والجزاء من جنس العمل. عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه و سلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه، فقال: "أدنه، فدنا منه قريبا، قال: فجلس قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله،

جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[١].

ثالثا: أنها سبب للنجاة وقت الضيق

فجاء في الصحيح في قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة أن أحدهم توسل إلى الله بقوله" اللهم كان ابنة عم وكنت أحبها أشد ما يحب الرجال النساء فأردتها عن نفسها فأبت حتى ألمت بها سنة فأتتني فأعطيتها عشرين ومئة دينار أن تخلي بيني وبين نفسها فلما قعدت بين رجليها قالت: إتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقمت عنها وهي من أحب النساء إلي، وتركت العشرين ومئة دينار لها اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجه الله فأفرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة شيئا"[٢]

---

(١) مسند احمد في مسنده برقم (٢٢٢٦٥) ، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، ورجاله ثقات

(٢) صحيح البخاري برقم (٢١١١).

رابعا: الاستظلال بظل العرش

فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله"(١) قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث:" وخص ذات المنصب والجمال لكثرة الرغبة فيها وعسر حصولها، وهي جامعة للمنصب والجمال لا سيما وهي داعية إلى نفسها، طالبة لذلك قد أغنت عن مشاق التوصل إلى مراودة ونحوها، فالصبر عنها لخوف الله تعالى وقد دعت إلى نفسها مع جمعها المنصب والجمال من أكمل المراتب وأعظم الطاعات، فرتب الله تعالى عليه أن يظله في ظله "(٢) .

خامسا: دخول الجنة والنجاة من النار

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ [المؤمنون ٥- ١١] فالجنة التي يتمنى كل مؤمن أن

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٢٠).

(٢) شرح صحيح مسلم، للنووي ٢/٤٨١.

ينالها محفوفة بالمكاره، ولن تنالها بتوفيق الله إلا النفوس العفيفة الطاهرة، ولن تكون النفوس طاهرة إلا بالاستقامة على طاعة الله ومخالفة الهوى ومصارعة الشهوات والبعد عن الفحشاء والمنكر فما أحسن أثر العفاف والصيانة، وأعظم عوائدها النافعة! وطوبى للعفيفين والعفيفات، وهنيئا لهم بالفوز بحسن السيرة، ونيل الدرجات في الجنات.

من أسباب العفة

أولا: الزواج مبكرا

فإن إرواء الغريزة مبكرا مما يحول بين المرء وبين المعاصي بتوفيق الله، ففي الحديث الصحيح قال صلى الله عليه وسلم:" يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"[1] .

ثانيا: عدم الخلوة بالمرأة الأجنبية

لقوله صلى الله عليه وسلم " إياكم والدخول على النساء" ، قال رجل يا رسول الله أرأيت الحمو أخو الزوج ، قال "الحمو الموت"[2]، ونهى الإسلام الرجل أن يدخل على المرأة إلا بمحرم ولا يخلو بها إلا بمحرم.

ثالثا: التقوى

تربية الصغار على العفة والسلامة وحملهم على الأخلاق الكريمة فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم

---

(١) سبق تجريجه.

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٨٣١).

في المضاجع"[1] وتربية النفس على طاعة الله وامتثال أوامره من أسباب العفة عن معاصي الله.

رابعا: إقامة حدود الله

فإن إقامة حدود الله تذكر المجرم بآلامها فتردع من يريد السوء والفساد، والمسلم الحق عفيف بطبيعته، لا يقرب الفواحش ولا يغشى المحرمات، بل يتجنب القبائح والمنكرات، ويتنزه عن كل ما يتنافى مع كمال المروءة من الخوارم والنداءات ويدع كثيرا مما ليس به بأس مخافة الوقوع فيما فيه بأس مستشعرا دائما مراقبة الله تعالى فإنه سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

---

(١) رواه أحمد في مسنده برقم (٦٧٥٦). وقال عنه شعيب الأرناؤوط: حسن.

٧ـ خلق الحياء

الحياء في اللغة

الحياء مصدر مأخوذ من مادة (ح ي ي) ولها معنيان: **الأول**: الحياة وهو ضد الموت، **والثاني**: الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة، ومنه قولهم: استحييت منه استحياء، وقال أبو زيد: حييت منه أحيا إذا استحييت"(١).

الحياء في الاصطلاح

عرفه الجرجاني فقال:" انقباض النفس من شيء وتركه حذرا عن اللوم فيه، وهو نوعان: **نفساني**، وهو الذي خلقه الله تعالى في النفوس، كلها كالحياء من كشف العورة، والجماع بين الناس، **وإيماني**، وهو أن يمنع المؤمن من فعل المعاصي خوفا من الله تعالى"(٢).

وقال ابن القيم في المدارج:" حياء القلب يكون فيه قوة خلق الحياء وقلة الحياء من موت القلب والروح فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم، قال الجنيد رحمه الله: الحياء رؤية الآلاء ورؤية التقصير فيتولد

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، بتصرف واختصار ٢/٩٨.

(٢) التعريفات، للجرجاني،٣١.

بينهما حالة تسمى الحياء وحقيقته: خلق يبعث على ترك القبائح ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق"[١].

مكانة خلق الحياء في الإسلام

جعل الإسلام للأبواب الواسعة من الأخلاق الفاضلة، مفتاحا واحدا، وعنوانا واضحا، ودليلا ظاهرا، به يقاس معيار الخلق، جميله أو قبيحه، ذلك هو خلق الحياء، فالحياء علامة الإيمان وحسن الخلق؛ قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى:" الحياء أمارة صادقة على طبيعة الإنسان، فهو يكشف عن قيمة إيمانه ومقدار أدبه، وعندما ترى الرجل يتحرج من فعل ما لا ينبغي، أو ترى حمرة الخجل تصبغ وجهه إذا بدر منه ما لا يليق، فاعلم أنه حي الضمير، نقى المعدن، زكي العنصر، وإذا رأيت الشخص صفيقا بليد الشعور لا يبالى ما يأخذ أو يترك فهو امرؤ لا خير فيه، وليس له من الحياء وارع يعصمه عن اقتراف الآثام وارتكاب الدنايا"[٢].

لهذا لا غرابة في أن يكون الحياء هو خلق الإسلام، كما قال عليه الصلاة والسلام: "إن لكل دين خلقا، وخلق الإسلام الحياء"[٣] ، هذا

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم٢/٢٦٠.

(٢) خلق المسلم، لمحمد الغزالي صـ ١٣١.

(٣) سنن ابن ماجه برقم (٤١٨١) ، وقال عنه الألباني: إسناده حسن.

الخلق النبيل والسلوك القويم الذي ما اتصف به مسلم ما إلا وحاز به الخير الكثير، وابتعد به عن الشر المستطير، ونال به الثواب الكبير.

ويكفي لعظمة هذا الخلق وجلاله أن الله سبحانه وتعالى متصف به، فالحياء صفة من صفات الرحمن، وصفاته تعالى كلها صفات كمال، منزهة عن أي عيب ونقصان، فعن سلمان الفارسي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " **إن الله حيي كريم يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين**" [١]، قال الإمام ابن القيم رحمه الله: " وأما حياء الرب تعالى من عبده فذاك نوع آخر لا تدركه الأفهام ولا تكيفه العقول فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال، فإنه تبارك وتعالى حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا، ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام، وكان يحيى بن معاذ يقول: سبحان من يذنب عبده ويستحيى هو، وفي أثر: من استحيى من الله استحيى الله منه"[٢] .

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٩٠٤) ، وقال عنه الألباني: حديث صحيح.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم٢/٢٦١.

الحياء خلق من أخلاق الأنبياء

والحياء خلق من أخلاق الأنبياء والمرسلين، ولا يخفى علينا جميعا ما كان لنبينا من هذه الصفة الجليلة، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها وإذا كره شيئا عرف في وجهه "[1] والعذراء هي البنت التي لم يسبق لها زواج، وخدرها موضعها الذي تصان فيه عن الأعين، نعم، هكذا كان رسولنا وقدوتنا.

وهذا نبي الله موسى صلى الله عليه وسلم كان حييا ستيرا، لا يرى من جلده شيء؛ استحياء من الله، ولشدة حيائه ظن به بنو إسرائيل ظنونا سيئة واتهموه باتهامات باطلة فقالوا عنه: إنه آدر، وقالوا عنه: إن به برص لذلك لا يكشف جلده، وما علموا أن سبب ذلك شدة حيائه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة[2] وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه**

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٢٩٨).

(٢) الآدر: عظم الخصيتين ،غريب الحديث، لابن الجوزي١/ ١٥.

وطلب الحجر فجعل يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا فذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٩]" [(١)].

فضائل خلق الحياء

لخلق الحياء فضائل عديدة دلت عليها سنة نبينا صلى الله عليه وسلم وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**دعه فإن الحياء من الإيمان**""[(٢)]، قال ابن بطال:" معناه أن من استحيا من الناس أن يروه يأتي الفجور ويرتكب المحارم، فذلك داعية له إلى أن يكون أشد حياء من ربه وخالقه، ومن استحيا من ربه فإن حياءه زاجر له عن تضييع فرائضه وركوب معاصيه؛ لأن كل ذي فطرة صحيحة يعلم أن الله تعالى النافع له والضار والرزاق والمحي والمميت، فإذا علم ذلك فينبغي له أن يستحى منه عز وجل، وهو قوله

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٤٠٤).

(٢) رواه البخاري برقم (٢٣) ورواه مسلم برقم (٥٢).

صلى الله عليه وسلم:" دعه فإن الحياء من الإيمان"[١]، معناه أن الحياء من أسباب الإيمان وأخلاق أهله، وذلك أنه لما كان الحياء يمنع من الفواحش، ويحمل على الصبر والخير كما يمنع الإيمان صاحبه من الفجور، ويقيده عن المعاصي ويحمله على الطاعة صار كالإيمان لمساواته له فى ذلك، وإن كان الحياء غريزة والإيمان فعل المؤمن فاشتبها من هذه الجهة"[٢].

والحياء من الإيمان، وكلما ازداد منه صاحبه ازداد إيمانه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم "الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"[٣] قال الإمام النووي في شرحه لهذ الحديث:" إنما جعل الحياء من الإيمان؛ لأنه قد يكون تخلقا واكتسابا كسائر أعمال البر، وقد يكون غريزة ولكن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اكتساب ونية وعلم فهو من الإيمان بهذا، ولكونه باعثا على أفعال البر، ومانعا من المعاصي"[٤]، والحياء خلق الإسلام ؛ لقول سيد الأنام عليه الصلاة والسلام : "**إن لكل دين خلقا، وخلق الإسلام الحياء**

---

(١) صحيح البخاري برقم (٥٦٥٣).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال١٧/٣٦٦.

(٣) صحيح البخاري برقم (٨) ورواه مسلم برقم (٥٠).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي١/١١٢.

"[1]، والحياء يحمل على الاستقامة على الطاعة، وعلى ترك المعصية ونبذ طريقها، وهل أدل على ذلك من قول نبينا صلى الله عليه وسلم : " **إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فافعل ما شئت**"[2] ، وإن من أعظم فضائله أنه يفضي بأصحابه إلى جنة عرضها السماوات والأرض، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "**الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء والجفاء في النار**"[3] .

المرأة وحظها من خلق الحياء

وإذا كان الحياء مطلوب من كل مسلم ومسلمة ؛ فإنه أشد طلباً من جانب النساء، فالمرأة محل طمع الرجال فإذا قل حياؤها وضعفت حشمتها أرخصت نفسها وضيعت دينها وعرضت نفسها لمخاطر جسيمة في شرفها وسمعتها وسمعة أهلها وقرابتها، لهذ ذكر الله في كتابه الكريم حياء المرأتين الصالحتين من قوم شعيب فقال تعالى:﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾[القصص: ٢٥]، قال سيد قطب في ظلاله عند هذه لآية:" ﴿ تَمْشِى عَلَى

---

(١) سنن ابن ماجه برقم (٤١٨١) ، وقال عنه الألباني: إسناده حسن.

(٢) رواه البخاري برقم (٥٦٥٥).

(٣) رواه الترمذي برقم (٢٠٠٩) ، وقال عنه الترمذي: حديث حسن صحيح.

ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾ مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال، ﴿ عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾ في غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء، جاءته لتنهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدله، يحكيه القرآن بقوله: ﴿ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا ﴾، فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح؛ لا التلجلج والتعثر والربكة، وذلك كذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة، فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب، الاضطراب الذي يطمع ويغري ويهيج؛ إنما تتحدث في وضوح بالقدر المطلوب، ولا تزيد، وينهي السياق هذا المشهد فلا يزيد عليه ، ولا يفسح المجال لغير الدعوة من الفتاة ، والاستجابة من موسى"[1] .

وقد وصف الله تعالى في كتابه الكريم مريم ابنت عمران بالعفاف والإحصان فقال تعالى: ﴿ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا ﴾ [التحريم: ١٢]، قال الله تعالى عنها احصنت ولم يقل أحصنا وهذا دليل على أنها هي من تبحث عن العفاف والستر والمتمسكة به وعندما أرسل الله إليه ملك لينفخ فيها ماذا فعلت؟ هل رحبت به أم أخذت منه موعدا حتى تخلو به؟ لا والله بل قالت وملء قلبها إيمان وحياء: ﴿ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب٥/٤١٩.

بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ ﴾ [مريم: ١٨] وعندما نفخ فيه وانجبت ابنها قالت :﴿ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم: ٢٣] هذا ما تمنت وما حصل لها بسبب إيمانها وشدة حيائها.

وقد شرع الإسلام من الشرائع والأحكام ما يحفظ به حياء المرأة المسلمة وعفتها، وما يصون به شرفها وقيمها، ومن هذه الأحكام ما أوجبه الله عليها من السترة واللباس، فشرع لها الحجاب هذا اللباس الرباني الذي هو عنوان الحياء والعفة عند المرأة المسلمة، فقد أوجبه الله تعالى في كتابه فقال جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، والحجاب طهارة للمرأة المحجبة وطهارة لقلب الرجل، قال تعالى:﴿ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾[الأحزاب: ٥٣] ، فوصف الله سبحانه الحجاب بأنه طهارة لقلوب المؤمنين والمؤمنات؛ لأن العين إذا لم تر لم يشته القلب، أما إذا رأت العين فقد يشتهي القلب وقد لا يشتهي.

وقد شرع الإسلام للمرأة الحياء في صوتها وهي تكلم غير زوجها فقال تعالى:﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ

فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٣].

وإذا نَهَي الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم عن الخضوع بالقول وهن الطاهرات المطهرات فغيرهن من باب أولى، وشرع لها الحياء في لباسها وزينتها وبدنها فأمرت بالقرار في البيوت كما قال تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ فلا تخرج إلا لحاجة ومصلحة دينية أو دنيوية، ونهيت عن التبرج كما قال تعالى وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ﴾ [الأحزاب: ٥٣] بادر نساء المؤمنين إلى امتثالها والعمل بمقتضاها فكن أحرص النساء على التستر والاحتشام، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة فقالت أم سلمة فكيف يصنعن النساء بذيولهن قال يرخين شبرا فقالت إذا تنكشف أقدامهن قال فيرخينه ذراعا لا يزدن عليه"(١)، وقالت أم المؤمنين، عائشة رضي الله عنها دفنا محمد صلى الله عليه وسلم في بيتي فكنت أدخل وأستغفر الله له وأصلي عليه ودفنا أبي فكنت أدخل عليهما وأستغفر الله لهما وأصلي عليهما، فلا والله ما

(١) رواه الترمذي برقم (١٧٢١)، وقال هذا حديث حسن صحيح.

دخلته قط بعد أن دفنا عمر رضي الله عنه إلا وأنا مشدودة علي ثيابي حياء من عمر رضي الله عنه وهو تحت الارض.

لا إله إلا الله تستحي من رجل ميت كيف لو جاءت رضي الله عنها ورأت حال بعض نساء المسلمين في عصرنا التي تدمي القلب وتدمع العين بسبب قلة الحياء والجري وراء الفتن والملذات وجعلن همهن الدنيا والبحث عن كل ما هو مخالف للشرع وكل ما هو من عمل الكفار وتشبهن بالفاسقات من الممثلات والمطربات وجعلنهن نجوما يهتدين بهن وتناسين يوما يرجعن فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون.

بل بلغ الحياء مبلغا لا يكاد يبلغه الخيال من المرأة المسلمة في مجتمع الصحابة ففي قصة المرأة السوداء التي كانت تصرع وكانت تتكشف حال صرعها دون إرادة ولا اختيار منها، فعن عطاء بن أبي رباح قال قال لي ابن عباس ألا أريك امرأة من أهل الجنة قلت بلى قال هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي قال:" **إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**" فقالت أصبر فقالت إني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف فدعا لها"[1]، فانظر كيف رضيت بالصبر على المرض ولم ترض بالتكشف في حالة هي معذورة فيها.

---

(١) صحيح البخاري، برقم (٥٢٢٠).

فما أطهر تلك القلوب وما أسمى تلك الأخلاق، نعم هذا حال نساء الصحابة والتابعات لهن بإحسان في الحياء والتستر والتصون والاحتشام، وهن القدوة الصحيحة لنساء المسلمين في كل زمان ومكان.

٨ـ خلق الوفاء

الوفاء في لغة

"الخلق الشّريف العالي الرّفيع من قولهم: وفى الشّعر فهو واف إذا زاد، ومنه الوفاء بالعهد، وسمّي بذلك لما فيه من بلوغ تمام الكمال في تنفيذ كلّ ما عاهد عليه الله، وفي كلّ ما عاهد عليه العباد"(١)

الوفاء اصطلاحا

قال الجرجانيّ: "الوفاء: هو ملازمة طريق المواساة، ومحافظة عهود الخلطاء"(٢)،

وقال الرّاغب الأصفهاني:" الوفاء بالعهد: إتمامه وعدم نقض حفظه ، ويكون الوفاء بصدق اللّسان والفعل معا "(٣) .

الوفاء من صفات الله عز وجل

الوفاء خلق جميل، وكنز ثمين، وهو خلق من أخلاق الإسلام الراقية، وصفة من صفات النفوس الأبية، إذا انتشر بين الناس ملأ حياتهم صفاء ونقاء، وظلّلهم بروح المودة والإخاء والمحبة والألفة فما أجمله من خلق! وما أرقه من خصلة! وما أسماه من صفة! قال تعالى: ﴿ لَكِنِ

---

(١) لسان العرب، لابن منظور ١٥/ ٣٩٨، بصائر ذوي التمييز، للفيروز أبادي ٤/ ١١٤.

(٢) التعريفات، للجرجاني صـ ٢٧٤.

(٣) المفردات، للراغب الأصفهاني صـ ٥٢٨ ، والذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني أيضا صـ ٢٩٢

ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزمر: ٢٠] وقال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ ﴾[النساء: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الروم: ٦].

وقد أمر الله عباده المؤمنين بالوفاء بالعقود بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾[المائدة: ١] قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره:" قال ابن عباس ومجاهد و وغير واحد يعنى العهود، وما أحل الله وما حرم، وما فرض وما حد في القرآن كله ولا تغدروا ولا تنكثوا وقال الضحاك: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ قال: ما أحل الله وحرم وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام" (١).

ولقد أمر المولى سبحانه عباده بالوفاء بالعهود ونهاهم عن الغدر فقال سبحانه ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ

(١) تفسير ابن كثير ٢/٨.

تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال سبحانه: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١]، والآيات القرآنية الدالة على ذلك كثيرة ومعلومة.

الوفاء من أخلاق الأنبياء والمرسلين

والوفاء خلق من أخلاق الأنبياء والمرسلين فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام فهو إمام الحنفاء وإمام الأوفياء يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم: ٣٧] " قال ابن عباس: وفي بسهام الإسلام كلها ولم يوفها أحد غيره وهي ثلاثون سهما منها عشرة في سورة براءة، في قوله تعالى:﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة: ١١٢] ، وعشرة في سورة الأحزاب، في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّآئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وست في سورة المؤمنون في قوله تعالى:﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ

فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون: ١ – ١١]، وأربع في سورة المعارج، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾[المعارج: ١٩ – ٢٨]، والأولى العموم وهو مروي عن الحسن قال: ما أمره الله تعالى بشيء إلا وفى به وتخصيصه عليه السلام بهذا الوصف لاحتماله ما لا يحتمله غيره، وفي قصة الذبح ما فيه كفاية "[1].

فقام إبراهيم عليه السلام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي وبلغ الرسالة على التمام والكمال فاستحق بهذا أن يكون للناس إماما يقتدي

(١) روح المعاني، للألوسي ٢٠/ ١٨باختصار.

به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله قال الله تعالى:﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣ ﴾ [النحل: ١٢٣].

إن أعظم الناس وفاء هم الأنبياء ورسولنا صلى الله عليه وسلم بلغ المنتهى في الوفاء وحفظ العهد، فمن كريم وفائه صلى الله عليه وسلم بأمته، أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، وادخر دعوته المستجابة شفاعة لأمته يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**لكل نبي دعوة مستجابة، وإني وضعت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، وهي نائلة منكم إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئا**"[١].

وفي حديث الشفاعة الطويل عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ [٢] فيأتون آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وكل يعتذر ويقول نفسي نفسي، إلا محمدا صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٨٢٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٤٣٤٣).

فإنهم إذا أتوه:" يقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب أمتي يا رب أمتي يا رب فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة وبصرى"[1].

وفاء الصحابة

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم من أوفى الخلق مع الله تعالى، فعن أنس رضي الله عنه قال غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين، ثم تقدم فاستقبله سعد بن

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٣٤٣).

معاذ فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾[الأحزاب: ٢٣] "[1].

وهذا أعرابي آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وبايعه على الجهاد في سبيل الله، فعن شداد بن الهاد رضي الله عنه أن رجلا من الأعراب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فلما كانت غزوة غنم النبي صلى الله عليه وسلم سبيا فقسم، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبي صلى الله عليه وسلم فأخذه فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما هذا؟ قال: " قسمته لك "، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكنني اتبعتك على أن أرمي ها هنا وأشار إلى حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة فقال " إن تصدق الله يصدقك " فلبثوا قليلا ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي به النبي صلى الله عليه وسلم أهو هو؟

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٥٩٥).

قالوا: نعم، قال: صدق الله فصدقه " ثم كفنه النبي صلى الله عليه وسلم في جبة النبي صلى الله عليه وسلم ثم قدمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته " اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا فقتل شهيدا أنا شهيد على ذلك "[1] .

مجالات الوفاء

المجال الأول: الوفاء بعهد الله: فالله قد أخذ علينا العهود والمواثيق وأمرنا بالوفاء بها ونهانا عن نقضها، وأول هذه العهود الإيمان به وإفراده بالعبودية ولا نشرك به أحد، فقد أخذ الله علينا العهد والميثاق في عالم الذر وقد أقررنا بذلك، يقول سبحانه ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[الأعراف: ١٧٢]، قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله: " إن إشهاد الله للخلق على أنفسهم إنما هو بما نصب لهم من الأدلة القاطعة بأنه ربهم المستحق منهم لأن يعبدوه، وحده، وعليه فمعنى قولهم: ﴿ بَلَىٰ ﴾، أي قالوا ذلك: بلسان حالهم لظهور الأدلة عليه، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ

---

(١) رواه النسائي برقم (١٩٥٣) ، وصححه الألباني.

﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[العاديات: ٦ـ ٧] أي بلسان حاله أيضا على القول بأن ذلك هو المراد في الآية أيضا"(١).

وأما السنة فإنه قد دلت أحاديث كثيرة على أن الله أخرج ذرية آدم في صورة الذر فأخذ عليهم الميثاق، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم فيقول: أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي"(٢).

ولما كان من طبيعة الإنسان النسيان فقد بعث الله رسله مبشرين ومنذرين، وبهذا العهد مذكرين، فمن أطاعهم فقد وفي، ومن عصاهم فقد نقض عهد الله من بعد ميثاقه، والله تعالى ينكر على من لا يجيب رسوله ولا يفي بعهده فيقول: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحديد: ٨]، ويوم القيامة يوبِّخ الله تعالى الذين نقضوا الميثاق يوبخهم على رؤوس الأشهاد فيقول لهم: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ

---

(١) أضواء البيان، للشنقيطي٢/ ١٤٣.

(٢) رواه البخاري برقم (٦٠٧٢).

تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يس: ٦٠- ٦٤]، فمن آمن بالله وعبده حق عبادته فعلم علم اليقين أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فتوكل واستعان واستغاث ونذر وأحب وأبغض لله فقد أوفى بعهد الله تعالى، ومن أحب غيره أو اعتقد في غيره أنه ينفع ويضر فنذر وخاف واستعان به من الولي أو النبي فقد نقص عهد الله من بعد ميثاقه.

المجال الثاني: الوفاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

والوفاء مع النبي صلى الله عليه وسلم إنما يكون بطاعته وإتباعه والتمسك بسنته والعض عليها بالنواجذ فإن طاعته من طاعة الله يقول سبحانه وتعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء: ٨٠] بل إنه سبحانه جعل طاعة نبيه صلى الله عليه وسلم من موجبات الهداية فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور: ٥٤].

ومن الصور الوفاء الناصعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سطره الصحابة رضى الله عنهم أجمعين، فعن زيد بن ثابت قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لطلب سعد بن الربيع وقال: إن رأيته فأقرئه مني السلام وقل له: كيف تجدك؟ قال فأتيته وهو في آخر

رمق به سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف، ورميه بسهم، فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أنظر في الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال: إني في الأموات فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عني السلام وقل: إن سعد بن الربيع يقول: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته، وقل: إني أجد ريح الجنة، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله تعالى إن خلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكروه وفيكم عين تطرف ثم لم يبرح أن مات"[1].

المجال الثالث: الوفاء مع الناس

إن الوفاء بعهد الله ورسوله يقتضي الوفاء مع عباد الله، ولقد أمرنا سبحانه بذلك في كتابه فقال سبحانه﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢ ﴾[النحل: ٩١ – ٩٢] تأملوا في هذا المثل الذي ضربه الله للعهود ولمن نقضها، حيث

(١) رواه الحاكم في مستدركه برقم (٢٠١) ، وقال عنه: هذا حديث صحيح الاسناد.

أنه سبحانه شبه الذي ينقض العهود بامرأة خرقاء لا عقل لها ولا رأى لها فهي تغزل حتى إذا أتمت غزلها نقضته مرة أخرى، فهل يرضى المسلم العاقل أن يكون مثل تلك المرأة الحمقاء؟! ثم أوضح سبحانه أنه يختبرنا بتلك العهود فقال ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ﴾، قال ابن جرير في تفسيره:" يقول تعالى ذكره: إنما يختبركم الله بأمره إياكم بالوفاء بعهد الله إذا عاهدتم، ليتبين المطيع منكم المنتهي إلى أمره ونهيه من العاصي المخالف أمره ونهيه ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يقول تعالى ذكره: وليبينن لكم أيها الناس ربكم يوم القيامة إذا وردتم عليه بمجازاة كل فريق منكم على عمله في الدنيا، المحسن منكم بإحسانه والمسيء بإساءته،﴿ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ والذي كانوا فيه يختلفون في الدنيا أن المؤمن بالله كان يقر بوحدانية الله ونبوة نبيه، ويصدق بما ابتعث به أنبياءه، وكان يكذب بذلك كله الكافر فذلك كان اختلافهم في الدنيا الذي وعد الله تعالى ذكره عباده أن يبينه لهم عند ورودهم عليه بما وصفنا من البيان[1].

المجال الرابع: الوفاء بالدين

ومن الأمثلة الواردة في هذا المجال ما رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه ذكر أن رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض

---

(١) تفسير الطبري١٧/ ٢٨٧.

بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار قال: ائتني بالشهود أشهدهم عليك قال: كفى بالله شهيدا قال: فأتني بكفيل قال: كفى بالله كفيلا قال: فدفعها إليه إلى أجل مسمى: فخرج في البحر وقضى حاجته ثم التمس مركبا يقدم عليه للأجل الذى أجله، فلم يجد مركبا فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها الدنانير وصحيفة منه إلى صاحبها ثم سد موضعها ثم أتى بها البحر فقال: اللهم إنك تعلم أنى تسلفت من فلان ألف دينار وسألني كفيلا فقلت: كفى بالله كفيلا فرضى بك وسألني شهودا فقلت: كفى بالله شهيدا فرضى بك وقد جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له فلم أجد مركبا، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركبا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذى كان سلفه رجاء أن يكون مركبا قد جاء بماله فإذا هو بالخشبة فأخذها لأهله حطبا فلما كسرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الرجل فأتاه بألف دينار فقال: والله ما زلت جاهدا في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذى أتيت فيه فقال: هل كنت بعثت إلى بشيء قال: نعم قال: فإن الله عز وجل قد أدى عنك فانصرف بالألف دينار راشدا"[1]

المجال الخامس: الوفاء بالعهود مع الأعداء

ومن صور الوفاء التي حث عليها الله وأمر بها الوفاء مع العدو وعد الغدر والخيانة، يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ

(١) رواه البخاري، باب الْكَفَالَةِ فِي الْقَرْضِ وَالدُّيُونِ.

ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [التوبة: ٤.] ويقول صاحب المنار " والآية تدل على أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام ما دام العهد معقودا، وعلى أن العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته" (١).

ومن صور وفائه صلى الله عليه وسلم مع أعدائه هذه الصورة المشرقة، فعندما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتاه أبو بصير، وكان ممن حبس بمكة، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب فيه أزهر بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعث رجلا من بني عمرو بن لؤي ومعه مولى لهم، فقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب الأزهر والأخنس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بصير أنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، فانطلق إلى قومك، قال يا رسول الله: أتردني إلى المشركين يفتونني في ديني؟ قال: يا أبا بصير: أنطلق فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا "(٢).

---

(١) تفسير المنار، لرشيد رضاء ١٠/ ١٣٨.

(٢) سيرة ابن هشام٢/ ٣٢٣.

وهكذا تجلى وفاء سيد الأوفياء مع أعداء الإسلام فأتم وأوفى ولم لا وهو أمرنا بالوفاء بالعهود وحثنا عليها وحذرنا من نقضها فهو صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة.

ومن عجائب ما يؤثر إبان فتح الأندلس أن امرءا إسبانيا اعتدى على فتى من العرب وقتله، ثم فر هاربا حتى رأى بستانا فلجأ إليه فدخله فوجد فيه شيخا جليلا فاستجار به ليجيره من شر أعدائه فخبأه الرجل في مكان منفرد، ثم ارتفع الصياح بفناء البستان ودخل نفر من الناس يحملون القتيل فنظره الشيخ فوجده ابنه، واعتقد أن ذلك الشاب الذي التجأ إليه هو الذي قتل ابنه، فأخذ منه الحزن مأخذه، ولكن الشيخ قد أخفى حزنه وانتظر حتى أقبل الليل وهدأت الأصوات ثم قام ودخل على الفتى وأنبأه بنبئه الحادث المؤلم فهلع فؤاد الفتى لهول المصاب، وكاد يموت من الخوف ولكن الرجل رأى من الوفاء أن يؤمن ويهدئ روعه حتى سرى عنه، ثم قال: ما كنت لأخفر ذمتي وأنقض عهدي معك، ولكن لا آمن عليك من قومي أن يقتلوك فخذ مؤونة سفرة وارحل عني والله ولي أمري"، وصدق الله العظيم وهو أصدق القائلين: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الرعد: ١٩ – ٢٠] .

٩- خلق العفو

العفو في اللغة

لفظ العفو يدل على الترك، قال الجوهري:" عفوت عن ذنبه، إذا تركته ولم تعاقبه، والعفو، على فعول: الكثير العفو، وعفا الماء، إذا لم يطرقه شيء يكدره، ويقال: وعفوته، أي أتيته أطلب معروفه"[١] وعرفه الراغب الأصفهاني بقوله:" العفو: القصد لتناول الشيء، يقال: عفاه واعتفاه، أي: قصده متناولا ما عنده، وعفت الريح الدار: قصدتها متناولة آثارها"[٢]

العفو في الاصطلاح

قال المناوي:" العفو ما جاء بغير تكلف ولا كره وقيل: القصد لتناول الشيء والتجاوز عن الذنب"[٣] وقال الكفوي:" فالعفو عن الذنب يصح رجوعه إلى ترك ما يستحق المذنب من العقوبة وإلى محو الذنب وإلى الإعراض عن المؤاخذة كما يعرض عما يسهل على النفس بذله"[٤]

---

(١) الصحاح في اللغة ، للجوهري ١/ ٤٨٣ بتصرف يسير واختصار.

(٢) المفردات، للراغب الأصفهاني صـ ٥٧٤.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، صـ ٢٢٦ باختصار بسير.

((٤ الكليات، للكفوي صـ ١٠٠١

من أسماء الله العفو

لقد جبل كثير من الناس على محبة ذواتهم والانتصار لأنفسهم، ومن ثم فلا بد أن تنشأ خلافات بينهم، في كل ميادين الحياة، في طرقاتهم وأسواقهم وأماكن عملهم حتى في اجتماعاتهم العائلية، بل في أماكن عباداتهم ومناسكهم، والمشكلة أن الخلافات تتطور فتكون لجاجا وخصاما، ويحصل تباعد وتنافر ما أنزل الله به من سلطان، وتتعقد بسببه الحياة ويفسد العيش وتشحن القلوب، فيصبح المسلم لا يطيق رؤية أخيه، إذا لمحه في طريق سلك غيره، وإن جمعه مجلس خرج منه مسرعا، بل قد يكونان من جماعة حي واحد ويتهاجران، وتذهب الأيام، والأعمال لا ترفع.

والأهمية موضوع العفو فإن الله تبارك وتعالى قد سمى نفسه "العفو" يقول تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾ [النساء: ١٤٩] قال الإمام الطبري في تفسير هذه الآية:" وإنما يعني بذلك: أن الله لم يزل ذا عفو عن عباده، مع قدرته على عقابهم على معصيتهم إياه، يقول: فاعفوا، أنتم أيضا، أيها الناس، عمن أتى إليكم ظلما، ولا تجهروا له بالسوء من القول، وإن قدرتم على الإساءة إليه، كما يعفو عنكم ربكم مع قدرته على عقابكم، وأنتم تعصونه وتخالفون أمره"(١)

---

(١) تفسير الطبري٩/٣٥١.

مكانة خلق العفو في الكتاب والسنة

لا شك أنه ما من أحد منا إلا وله زلات وسقطات وعليه مظالم وحقوق للناس، وهو يحب أن يتجاوز الناس عنه في مظالمهم ويسامحوه ؛ حتى لا يطالبوه بها يوم القيامة ، وهو أحوج ما يكون إلى حسناته، وقد رغب الله تعالى في كتابه في العفو عن الناس والصبر على أذاهم، فقال:﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وقال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾[النساء: ١٤٩]، وفي السنة من ذلك شيء كثير؛ فعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله "(١).

وعن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " ما من رجل يجرح في جسده جراحة فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به "(٢).

وقد كان العفو خلق نبينا محمد صلى الله عليه وسل، فلم يكن لينتقم لنفسه، بل كان يعفو ويصفح، ويفعل الخير ويحسن إلى من أساء إليه،

---

(١) صحيح مسلم برقه (٤٦٨٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (٢٢٧٥٣) ، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: صحيح بشواهده وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما ضرب رسول الله شيئا قط بيده ولا امرأة ولا خادما، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى فينتقم لله تعالى"(١).

وقد كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام أكثر الناس تطبيقا لهذا الخلق وتجلى ذلك الخلق يوم فتح مكة، حينما ملك أمر من طردوه وآذوه واتهموه باتهامات باطلة ما أنزل الله بها من سلطان وضيقوا الخناق على كل أتباعه ومناصريه، وبرغم كل ذلك لم يفكر رسولنا الكريم في الانتقام أو الثأر منهم أو حتى رد الإساءة بالإساءة، لا والله حاشاه بأبي هو وأمي، بل عفى عنهم والقصة في ذلك معروفة ومشهورة وهي أعظم وثيقة للعفو وللتسامح أطلقها رسول الله "صلى الله عليه وسلم(٢).

ومن مواقف السماحة والعفو في حياته صلى الله عليه وسلم، وحينما هم أعرابي بقتله حين رآه نائما تحت ظل شجرة، وقد علق سيفه عليها، فعن جابر رضي الله عنه قال: "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع "إحدى غزوات الرسول"، ونزل رسول الله "صلى الله عليه وسلم" تحت شجرة فعلق بها سيفه فجاء رجل من المشركين، وسيف

---

(١) صحيح مُسلِمٌ برقم (٦١٩٥).

(٢) سنن البيهقي برقم (١٨٧٣٨) باختصار.

رسول الله "صلى الله عليه وسلم" معلق بالشجرة فأخذه، فقال الأعرابي: تخافني؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا، فقال الأعرابي: فمن يمنعك مني؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله، فسقط السيف من يد الأعرابي، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فقال للأعرابي: من يمنعك مني؟ فقال الأعرابي: كن خير آخذ، فقال صلى الله عليه وسلم: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قال: لا، ولكني أعاهدك ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيله، فأتى أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس"(١).

عن أنس بن مالك قال كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضحك ثم أمر له بعطاء"(٢).

وهذ ابو بكر رضى الله عنه لما خاض مسطح بن أثاثة فيما خاض فيه من حادثة الإفك ، وأنزل الله براءة عائشة رضي الله عنها، وكان أبو

---

(١) أخرجه ابن حبان برقم (١٢٨٨٣)، وقال عنه الألباني: صحيح.

(٢) رواه البخاري برقم (١٣١٩).

بكر رضي الله عنه ينفق على مسطح لقرابته وفقره، قال أبو بكر رضي الله عنه:" والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة ما قال" فأنزل الله ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[النور: ٢٢]، قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبدا "(١).

أهمة خلق العفو في إطفاء نار العدوات

لا أسرع في إطفاء نار الخلافات، ولا أنجع في تخفيف العداوات، من إلقاء برد العفو عليها ومعاجلتها بغيث الصفح والتسامح؛ لتتطهر القلوب من دنسها وتتقى من وضرها، ومن ثم ترجع للصف وحدته، ويكون الاجتماع، ويعيش الناس في اطمئنان وتآلف، فتتفرغوا لما فيه صلاحهم وفلاحهم، ويتعاونوا على ما به فوزهم ونجاحهم. لقد جاء الإسلام العظيم بما يردع الظلم ويكف نزوات الانتقام، ويمنع شهوات الانتصار للنفس!، بل جاءت نصوص تأمر بحسن المعاملة وعدم مقابلة الإساءة بالإساءة، وحثه على الدفع بالتي هي أحسن، وترغيبه في الصفح عن الأذى والعفو عن الإساءة، والاتصاف بالحلم وترك الغضب، والترفع عن

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٨٠٩).

الانتصار للنفس، قال تعالى:﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[فصلت: ٣٤] قال الإمام الشوكان في تفسيره لهذه الآية:" بين سبحانه الفرق بين محاسن الأعمال، ومساويها، فقال:﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ أي: لا تستوي الحسنة التي يرضى الله بها، ويثيب عليها، ولا السيئة التي يكرهها الله ، ويعاقب عليها، ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي: ادفع السيئة إذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات، ومنه مقابلة الإساءة بالإحسان، والذنب بالعفو، والغضب بالصبر، والإغضاء عن الهفوات، والاحتمال للمكروهات، قال مجاهد، وعطاء: بالتي هي أحسن يعني: بالسلام إذا لقي من يعاديه، وقيل: بالمصافحة عند ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ هذه هي الفائدة الحاصلة من الدفع بالتي هي أحسن ، والمعنى: أنك إذا فعلت ذلك الدفع صار العدو كالصديق، والبعيد عنك "[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[الشورى: ٤٠]، وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وبالعفو والصفح فقال تعالى:﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٩٩]، قال سيد قطب في ظلاله

(١) فتح القدير ٦/ ٣٥٥ با ختصار ٣٥٥.

حول هذه الآية:" أي: خذ العفو الميسر الممكن من أخلاق الناس في المعاشرة والصحبة، ولا تطلب إليهم الكمال، ولا تكلفهم الشاق من الأخلاق، واعف عن أخطائهم وضعفهم ونقصهم، كل أولئك في المعاملات الشخصية لا في العقيدة الدينية ولا في الواجبات الشرعية، فليس في عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التغاضي والتسامح، ولكن في الأخذ والعطاء والصحبة والجوار، وبذلك تمضي الحياة سهلة لينة، فالإغضاء عن الضعف البشري، والعطف عليه، والسماحة معه، واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء ورسول الله صلى الله عليه وسلم راع وهاد ومعلم ومرب، فهو أولى الناس بالسماحة واليسر والإغضاء، وكذلك كان صلى الله عليه وسلم، لم يغضب لنفسه قط فإذا كان في دين الله لم يقم لغضبه شيء!، وكل أصحاب الدعوة مأمورون بما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالتعامل مع النفوس البشرية لهدايتها يقتضي سعة صدر، وسماحة طبع، ويسرا وتيسيرا في غير تهاون ولا تفريط في دين الله.[1].

وبالعفو والصفح أمر الله المؤمنين، وجعل نتيجته مغفرة ذنوبهم ورحمته إياهم، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور: ٢٢] وقال تعالى في وصف المهيئين

(١) في ظلال القرآن،٣/٣٤٥ باختصار.

لجنة عرضها السماوات والأرض: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، [آل عمران: ١٣٤]

ومن فضل الله أن العفو يشمل جوانب الحياة كلها، فلم يقتصر على العفو عن القصاص، بل شمل جوانب التعامل العام والخاص، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كان تاجر يداين الناس فإذا رأى معسرا قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه"[١]، وثمة تأكيد على العفو في التعامل مع الآخرين، فعن عبد الله بن عمر قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كم نعفو عن الخادم فصمت ثم أعاد عليه الكلام فصمت فلما كان في الثالثة قال:" اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة"[٢]

.

من عوائق العفو

_أتدرون ما أكبر عائق للعفو؟ وما العقبة الكؤود التي توجهنا في ذالك؟ إنه اعتقادنا أن العفو عنوان للضعف والمذلة والهوان! وأنه لا يتنازل عن حقه إلا العاجز الضعيف، فلقد ترسب في أذهان كثير منا أنه إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب، وأن من الواجب أن ترد الصاع بصاعين! والحق إن قمة الشجاعة والامتنان تكمن في العفو عند المقدرة، ألم يقل

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٠٧٨).

(٢) رواه أبو داوود برقم (٥١٦٤) ' وصححه الالباني.

أصدق البشر عليه الصلاة والسلام: " وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا"[١]." وعن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو على المنبر ارحموا ترحموا واغفروا يغفر الله لكم"[٢] وقد ذكر الإمام البخاري عن إبراهيم النخعي رحمهم الله قوله:" كانوا يكرهون أن يستذلوا، فإذا قدروا عفوا"[٣] . وقال الحسن ابن علي رضي الله عنهما:" لو أن رجلا شتمني في أذني هذه واعتذر في أذني الأخرى لقبلت عذره .

في كل يوم يتأكد العلماء من شيء جديد في رحلتهم لعلاج الأمراض المستعصية، وآخر هذه الاكتشافات ما وجده الباحثون من أسرار العفو والتسامح! فقد أدرك علماء النفس حديثا أهمية الرضا عن النفس وعن الحياة وأهمية هذا الرضا في علاج الكثير من الاضطرابات النفسية، وفي دراسة نشرت على مجلة "دراسات السعادة"، اتضح أن هناك علاقة وثيقة بين التسامح والمغفرة والعفو من جهة، وبين السعادة والرضا من جهة ثانية، فقد جاؤوا بعدد من الأشخاص وقاموا بدراستهم دراسة دقيقة، درسوا واقعهم الاجتماعي ودرسوا ظروفهم المادية والمعنوية، ووجهوا إليهم العديد من الأسئلة التي تعطي بمجموعها مؤشرا على سعادة الإنسان في الحياة، وكانت المفاجأة أن الأشخاص الأكثر سعادة هم

---

(١) رَوَاهُ مُسلِمٌ برقم (٤٦٨٩).

(٢) رواه أحمد برقم (٧١) ، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٣) صحيح البخاري ٣١٦/٨.

الأكثر تسامحا وعفوا مع غيرهم! فقرروا بعد ذلك إجراء التجارب لاكتشاف العلاقة بين التسامح وبين أهم أمراض العصر مرض القلب، وكانت المفاجأة من جديد أن الأشخاص الذين تعودوا على العفو والتسامح وأن يصفحوا عمن أساء إليهم هم أقل الأشخاص انفعالا، وتبين بنتيجة هذه الدراسات أن هؤلاء المتسامحون لا يعانون من ضغط الدم، وعمل القلب لديهم فيه انتظام أكثر من غيرهم، ولديهم قدرة على الإبداع أكثر، وكذلك خلصت دراسات أخرى إلى أن التسامح يطيل العمر، فأطول الناس أعمارا هم أكثرهم تسامحا ولكن لماذا؟ لقد كشفت هذه الدراسة أن الذي يعود نفسه على التسامح ومع مرور الزمن فإن أي موقف يتعرض له بعد ذلك لا يحدث له أي توتر نفسي أو ارتفاع في ضغط الدم مما يريح عضلة القلب في أداء عملها، كذلك يتجنب هذا المتسامح الكثير من الأحلام المزعجة والقلق والتوتر الذي يسببه التفكير المستمر بالانتقام ممن أساء إليه"[1] .

وهكذا ندرك لماذا أمرنا الله تعالى بالتسامح والعفو، حتى إن الله جعل العفو نفقة نتصدق بها على غيرنا يقول تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: ٢١٩] وطلب منا أن نتفكر في فوائد هذا العفو، ولذلك ختم الآية بقوله:

---

(١) مجلة دراسات السعادة، العدد ١١ .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾، إن الهدف من العفو والتسامح هو: التخلص من العداوة ، و الكراهية، و غرس المحبة في نفوس الناس.

من قصص العفو في التاريخ

ومن بدائع قصص العفو والتسامح التي ذكرت في تاريخنا العربي والإسلامي أنه أتى شابان إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان في المجلس وهما يقودان رجلا من البادية فأوقفوه أمامه قال عمر: ما هذا ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين، هذا قتل أبان قال: أقتلت أباهم قال: نعم قتلته قال: كيف قتلته ؟ قال: دخل بجمله في أرضي، فزجرته فلم ينزجر، فأرسلت عليه حجرا، وقع على رأسه فمات، قال عمر: القصاص، بضرب عنقك، قرار لم يكتب، وحكم سديد لا يحتاج مناقشة، لم يسأل عمر عن أسرة هذا الرجل، هل هو من قبيلة شريفة ؟ هل هو من أسرة قوية ؟ ما مركزه في المجتمع ؟ كل هذا لا يهم عمر رضي الله عنه؛ لأنه لا يحابي أحدا في دين الله ، ولا يجامل أحدا على حساب شرع الله، ولو كان ابنه القاتل، لاقتص منه، قال الرجل: يا أمير المؤمنين: أسألك بالذي قامت به السماوات والأرض أن تتركني ليلة، لأذهب إلى زوجتي وأطفالي في البادية، فأخبرهم بأنك سوف تقتلني، ثم أعود إليك، والله ليس لهم عائل إلا الله ثم أنا قال عمر: من يكفلك أن تذهب إلى البادية، ثم تعود إلي؟ فسكت الناس جميعا، إنهم لا يعرفون

اسمه، ولا خيمته، ولا داره ولا قبيلته ولا منزله، فكيف يكفلونه، وهي كفالة ليست على عشرة دنانير، ولا على أرض، ولا على ناقة، إنها كفالة على الرقبة أن تقطع بالسيف، ومن يعترض على عمر في تطبيق شرع الله ؟ ومن يشفع عنده ؟ ومن يمكن أن يفكر في وساطة لديه ؟ فسكت الصحابة، وعمر متأثر؛ لأنه وقع في حيرة، هل يقدم فيقتل هذا الرجل، وأطفاله يموتون جوعا هناك أو يتركه فيذهب بلا كفالة ، فيضيع دم المقتول، وسكت الناس، ونكس عمر رأسه، والتفت إلى الشابين: أتعفوان عنه ؟ قالا: لا، من قتل أبانا لا بد أن يقتل يا أمير المؤمنين، قال عمر: من يكفل هذا أيها الناس ؟!! فقام أبو ذر الغفاري بشيبته وزهده، وصدقه، وقال: يا أمير المؤمنين، أنا أكفله قال عمر: هو قتل، قال: ولو كان قاتلا! قال: أتعرفه ؟ قال: ما أعرفه، قال: كيف تكفله؟ قال: رأيت فيه سمات المؤمنين، فعلمت أنه لا يكذب، وسيأتي إن شاء الله قال عمر: يا أبا ذر، أتظن أنه لو تأخر بعد ثلاث أني تاركك! قال: الله المستعان يا أمير المؤمنين فذهب الرجل، وأعطاه عمر ثلاث ليال، يهيئ فيها نفسه، ويودع أطفاله وأهله، وينظر في أمرهم بعده، ثم يأتي ليقتص منه لأنه قتل، وبعد ثلاث ليال لم ينس عمر الموعد، يعد الأيام عدا، وفي العصر نادى في المدينة: الصلاة جامعة، فجاء الشابان، واجتمع الناس، وأتى أبو ذر وجلس أمام عمر، قال عمر: أين الرجل؟ قال: ما أدري يا أمير المؤمنين! وتلفت أبو ذر إلى الشمس، وكأنها تمر سريعة على غير عادته، وسكت الصحابة واجمين،عليهم من التأثر مالا

يعلمه إلا الله. صحيح أن أبا ذر يسكن في قلب عمر، وأنه يقطع له من جسمه إذا أراد لكن هذه شريعة، لكن هذا منهج، لكن هذه أحكام ربانية، لا يلعب بها اللاعبون ولا تدخل في الأدراج لتناقش صلاحيتها، ولا تنفذ في ظروف دون ظروف وعلى أناس دون أناس، وفي مكان دون مكان، وقبل الغروب بلحظات، وإذا بالرجل يأتي، فكبر عمر، وكبر المسلمون معه فقال عمر: أيها الرجل أما إنك لو بقيت في باديتك ، ما شعرنا بك وما عرفنا مكانك، قال: يا أمير المؤمنين: والله ما علي منك ولكن علي من الذي يعلم السر وأخفى!! ها أنا يا أمير المؤمنين، تركت أطفالي كفراخ الطير لا ماء ولا شجر في البادية، وجئت لأقتل، وخشيت أن يقال لقد ذهب الوفاء بالعهد من الناس، فسأل عمر بن الخطاب أبو ذر لماذا ضمنته؟ فقال أبو ذر خشيت أن يقال لقد ذهب الخير من الناس، فوقف عمر وقال للشابين: ماذا تريان؟ قالا وهما يبكيان: عفونا عنه يا أمير المؤمنين لصدقه، وقالوا نخشى أن يقال لقد ذهب العفو من الناس! قال عمر: الله أكبر، ودموعه تسيل على لحيته جزاكما الله خيرا أيها الشابان على عفوكما، وجزاك الله خيرا يا أبا ذر يوم فرجت عن هذا الرجل كربته، وجزاك الله خيرا أيها الرجل لصدقك ووفائك، وجزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين. (١) .

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، للاتليدي صـ ٣

١٠ـ خلق الرحمة

الرحمة في اللغة

مادة (رح م) تدور معانيها حول الرأفة والعطف والرقة قال ابن فارس:" لراء والحاء والميم أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة، يقال من ذلك رحمه يرحمه، إذا رق له وتعطف عليه، والرَّحِم والمرحمة والرحمة بمعنى واحد"(١)

الرحمة في الاصطلاح

قال الجرجاني:" هي إرادة إيصال الخير للغير"(٢)، وقال الكفوي:" هي حالة وجدانية تعرض غالبا لمن به رقة في القلب وتكون مبدأ للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان"(٣)

مكانة خلق الرحمة في الإسلام

الرحمة خلق عظيم، ووصف كريم، وله في الإسلام شأن عظيم، فقد عظمه الله في كتابه، وهو خلق أكده الإسلام وأمر المسلمين التحلي به، والله تعالى له مائة رحمة

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس ٢/٤١٤.

(٢) العريفات، للجرجاني صـ ٣٦.

(٣) الكليات، للكفوي، صـ ٧٤٢.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله قال:" **إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة**"(١).

ولعظم رحمة الله اشتق منها الرحم، وجعلها معلقة بالعرش، فعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة، قال: أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك، قالت: بلى قال فذاك لك" ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرءوا إن شئتم: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤ ﴾ [محمد: ٢٢ - ٢٤] (٢)، والإسلام حث على رحمة الصغير والكبير والضعيف، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "ليس منا من لم يوقر الكبير، ويرحم الصغير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر"(٣).

---

(١) صحيح مسلم برقم (٤٩٤٤).

(٢) رواه مسلم برقم (٤٦٣٤)

(٣) رواه أحمد والترمذي.

والرحمة صفة من صفات ربنا، فلا يعلم مداها إلى هو قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، قال الإمام ابن عاشور في تفسير هذه الآية:" امتازت شريعة الإسلام بأن الرحمة ملازمة للناس في سائر أحوالهم وأنها حاصلة لجميع الناس لا لأمة خاصة، وقد أقيمت شريعة الإسلام على دعائم الرحمة والرفق واليسر، وما يتخيل من شدة في نحو القصاص والحدود فإنما هو لمراعاة تعارض الرحمة والمشقة كما أشار إليه قوله تعالى:﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٩] فالقصاص والحدود شدة على الجناة ورحمة ببقية الناس، وأما رحمة الإسلام بالأمم غير المسلمين فإنما نعني به رحمته بالأمم الداخلة تحت سلطانه وهم أهل الذمة، ورحمته بهم عدم إكراههم على مفارقة أديانهم، وإجراء العدل بينهم في الأحكام بحيث لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم في الحقوق العامة"(١).

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٩/٢٢١ باختصار.

من رحمات الله تعالى

ومن رحمته مغفرته للذنوب وقبول توبة التائبين، وقال تعالى:﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾[الكهف: ٥٨] قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:" الغفور: اسم يتضمن مبالغة الغفران؛ لأنه تعالى واسع المغفرة إذ يغفر لمن لا يحصون ويغفر ذنوبا لا تحصى إن جاءه عبده تائبا مُقْلعاً منكسرا، على أن إمهاله الكفار والعصاة والمعنى: أنهم فيما كسبوه من الشرك والعناد أحرياء بتعجيل العقوبة لكن الله يمهلهم إلى أمد معلوم مقدر، وفي ذلك التأجيل رحمة بالناس بتمكين بعضهم من مهلة التدارك وإعادة النظر، وفيه استبقاؤهم على حالهم زمنا "(١).

ومن رحمته مبعث محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله رحمة للعالمين: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية:" إن هذا الرسول منكم، فكل ما يحصل له من العز والشرف في الدنيا فهو عائد إليكم، وهو بحال يشق عليه ضرركم، فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم في حقكم، والطبيب المشفق ربما أقدم على علاجات صعبة يعسر تحملها، والأب الرحيم

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣٩٧/٨ باختصار.

ربما أقدم على تأديبات شاقة، إلا أنه لما عرف أن الطبيب حاذق، وأن الأب مشفق، صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة، وصارت تلك التأديبات جارية مجرى الإحسان، فكذا ههنا لما عرفتم أنه رسول حق من عند الله، فاقبلوا منه هذه التكاليف الشاقة لتفوزوا بكل خير "[1].

الذين يستحقون رحمة الله

يستحق رحمة الله سبحانه وتعالى من امتثل لأمر الله ورسوله قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

ويستحق رحمة الله أهل التقوى والإيمان، قال تعالى: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ورحمة الله تمنح لمن استغفر ربه وأناب، قال تعالى: ﴿ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦ ﴾ [النمل: ٤٦].

ورحمة الله سبحانه وتعالى لا ينالها إلا من كان في قلبه رحمة لإخوانه المسلمين، والمستضعفين، رحمة الله تتنزل على المتراحمين فيما بينهم، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله

---

(١) تفسير الرازي٨/١٩١.

عليه وسلم قال: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"(١)، وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لا يرحم الناس لا يرحمه الله"(٢).

إن نزع الرحمة من علامة الشقاء كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: "لا تنزع الرحمة إلا من شقي"(٣)، وعن النعمان بن بشير قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد السهر والحمى"(٤).

طلب الأنبياء رحمة الله

لعظم الرحمة وأهميتها فقد طلبها أنبياء الله ورسله من الله تعالى، ورفعوا أكف الضراعة بأن يرحمهم الله، وهم الذين بذلوا وقتهم للدين، ولنصرة الحق، ولتبليغ دين الله، وهم أكثر الناس عبادة وخشية لله سبحانه، ومع هذا طلبوا من الله الرحمة والمغفرة، قال تعالى عن الأبوين آدم وحواء أنهما قالا ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

---

(١) رواه الترمذي برقم (١٩٢٤) ، وقال عنه أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.
(٢) رواه مسلم برقم (٤٢٨٣).
(٣) رواه الترمذي برقم (١٩٢٣) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن.
(٤) رواه مسلم برقم (٤٦٨٥).

ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال عن نوح أنه قال:﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧]، وقال موسى عليه السلام: ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس: ٨٦] ، وقال سليمان عليه السلام: ﴿ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل: ١٩] ، وقال الله لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

نماذج من رحمته صلى اله عليه وسلم

وقد تمثل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا لخلق واقعا عمليا في حياته وإليكم نماذج من رحمته صلى الله عليه وسلم:

١- رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي صلى الله عليه وسلم: تلا قول الله عز وجل في إبراهيم:﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقول عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه، وقال: "اللهم، أمتي، أمتي، وبكى،

فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد وربك أعلم، فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام، فسأله، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك "[١] ، وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي"[٢]، وهذا من حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أمته ورحمته بها.

ومن رحمته بأمته أنه يشفع لها يوم القيامة، فعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست لها ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله، فيأتون موسى، فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسى، فإنه روح الله وكلمته فيأتون عيسى، فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فيأتوني، فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجدا، فيقول: يا محمد ارفع رأسك،

---

(١) صحيح مسلم برقم (٣٠١).

(٢) مسلم برقم (٤٢٣٦).

وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقول: انطلق، فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدا، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقول: انطلق، فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأخرجه، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدا، فيقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقول: انطلق، فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان، فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل"[1]

٢ـ رحمته صلى الله عليه وسلم بالعصاة من أمته

فقد جاء ماعز بن مالك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله طهرني، قال: "ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه"، قال: فرجع غير بعيد ثم جاء، فقال: يا رسول الله طهرني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه"، قال: فرجع غير بعيد ثم جاء، فقال: يا رسول الله طهرني، فقال: "ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه"، فرجع غير بعيد ثم جاء، فقال: يا رسول الله

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٩٥٦).

طهرني، حتى إذا كانت الرابعة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "مما أطهرك؟"، فقال: من الزنا، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم: "أبه جنون؟"، فأخبر أنه ليس به جنون، فقال: "أشرب خمرا؟"، فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أزنيت أنت؟"، قال: نعم، فأمر به فرجم فكان الناس فيه فرقتين، قائل يقول: لقد هلك ماعز على سوء عمله، لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز من أن جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم وهم جلوس فسلم ثم جلس، فقال: "استغفروا لماعز بن مالك"، قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم" [1].

٣ـ رحمته صلى الله عليه وسلم بالأطفال

عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه أبي قتادة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه"[2]، وعن أبي

---

(١) رواه مسلم شبرقم (٣٢٠٧).

(٢) صحيح البخاري برقم (٦٦٦).

هريرة رضي الله عنه قال: قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال" من لا يرحم لا يرحم"(١)، وعائشة رضي الله عنها قالت : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال تقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم فقال النبي صلى الله عليه و سلم:" أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة " (٢)

٤ـ رحمته صلى الله عليه وسلم وخوفه على المخالفين لمنهجه

عن أنس رضي الله عنه قال كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده فقعد عند رأسه فقال له: أسلم فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم صلى الله عليه وسلم فأسلم فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول:" الحمد لله الذي أنقذه من النار"(٣).

وأي رحمة أكبر من رحمته صلى الله عليه وسلم بعبدالله بن أبي بن سلول، ذلك الرجل الذي افترى على عائشة رضي الله عنها واتهمها بالزنى، وتولى كبر هذا الإفك، وهو الذي قال كما حكى القرآن الكريم:

---

(١) صحيح البخاري برقم (٥٥٣٨).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٥٣٩).

(٣) صحيح البخاري برقم (١٢٦٨).

﴿ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ ﴾ [المنافقون:٨]، لكن العجيب إن النبي صلى الله عليه وسلم، أشفق عليه من دخول النار، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أنه قال:" لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول دعي له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت إليه فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا أعدد عليه قوله، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أخر عني يا عمر فلما أكثرت عليه قال إني خيرت فاخترت لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة:﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨٤ ﴾ [التوبة: ٨٤] قال فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ "[١]

٥- رحمته صلى الله عليه وسلم بكفار قريش

فعن أبي هريرة رضى الله عنه، قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين!، قال: "إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة "[٢] وعن أم

---

(١) صحيح البخاري برقم (١٢٧٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (٤٧٠٤).

المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد فقال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا"[1]

٦ـ رحمته صلى الله عليه وسلم بالحيوان

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقي فسقى الكلب، فشكر الله له

---

(١) صحيح مسلم برقم (٣٣٥٢).

فغفر له قالوا يا رسول الله: وإن لنا في البهائم أجرا قال في كل كبد رطبة أجر"[١]، وعن سعيد بن جبير، قال: مر ابن عمر بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر:" من فعل هذا ؟ لعن الله من فعل هذا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا "[٢].

وعن عبد الله بن جعفر، قال: ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم بغلته، وأردفني خلفه، فدخل حائطا لرجل من الأنصار، فإذا فيه ناضح له" أي جمل له"، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمسح ذفراه وسراته فسكن، فقال: " من رب هذا الجمل؟ "، فجاء شاب من الأنصار، فقال: أنا، فقال: " ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكاك إلي، وزعم أنك تجيعه وتدئبه "[٣] وتدئبه أي: تتعبه.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٢١٩٠).

(٢) صحيح مسلم برقم (٣٦١٩).

(٣) رواه أبو داوود برقم (٢٥٥١).

١١. خلق الرفق

الرفق في اللغة

قال ابن فارس:" الراء والفاء والقاف أصل واحد يدل على موافقة ومقاربة بلا عنف، فالرفق: خلاف العنف، هذا هو الأصل، ثم يشتق منه كل شيء يدعو إلى راحة وموافقة"(١)

الرفق في الاصطلاح

قال ابن حجر في الفتح:" لين الجانب بالقول والفعل، والأخذ بالأسهل ، وهو ضد العنف"(٢)

مكانة خلق الرفق في الإسلام

الرفق من السجايا الجميلة والخصال النبيلة في منظومة مكارم الأخلاق في الإسلام ؛ ذلك أن التيسير والرفق في الإسلام سمة عظيمة ظاهرة، تتجلى في عقائده وعباداته ومعاملاته وأخلاقه، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:" ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٢/ ٣٤٥.

(٢) فتح الباري، لابن حجر ١٧٠/١٧.

فينتقم لله بها"[١]، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة"[٢] قال الإمام ابن حجر:" والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب، قال ابن المنير: وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، "[٣].

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**"[٤]، وروى عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا: " **إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا سفرا قطع ولا ظهرا أبقى**" [٥]، والمنبت هو المنقطع في سفره قبل وصوله.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٢٩٦) ورواه مسلم برقم (٤٢٩٤).

(٢) صحيح البخاريُّ برقم (٣٨).

(٣) فتح الباري، لابن حجر ٦٢/١.

(٤) صحيح البخاري برقم (٦٧٤٤).

(٥) شعب الإيمان، للبيهقيُّ برقم (٣٨٦٦)، وضعه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم(٨).

الرفق أمر الله به أنبياءه ورسله

والقول اللين والتصرف الرفيق أوقع في النفوس، وأبلغ في تحقيق المطلوب، وأدعى إلى الإجابة والقبول، سيما في مجال الدعوة إلى الله تعالى، وقد أمر الباري جل وعلا نبييه موسى وهارون عليهما السلام حينما بعثهما إلى طاغية الأرض فرعون:﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[طه: ٤٤] قال لإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية" هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، قال الحسن البصري في قوله تعالى:﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ أي قولا له: إن لك ربا ولك معادا، وإن بين يديك جنة وناراً، فدعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، وقوله تعالى: ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ ﴾ أي: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، ﴿ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ أي: يوجد طاعة من خشية ربه"(١).

ولقد كان من الصفات العظيمة والشمائل الكريمة التي امتن الله تعالى على رسوله وخليله محمد أن جعله رقيقا رحيما بالعباد رفيقا هينا سهلا لينا قريبا من الناس حريصا على محبتهم وهدايتهم بعيدا عن التكلف معهم والفظاظة بهم، وقال تعالى لخاتم الأنبياء وإمام الأولياء: ﴿ فَبِمَا

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/٢٩٥.

رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية:" بعث الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة، واختار الله تعالى أن تكون دعوته بين العرب أول شيء لحكمة أرادها الله تعالى في أن يكون العرب هم مبلغي الشريعة للعالم، والعرب أمة عرفت بالأنفة، وإباء الضيم، وسلامة الفطرة، وسرعة الفهم، وهم المتلقون الأولون للدين فلم تكن تليق بهم الشدة والغلظة، ولكنهم محتاجون إلى الرحمة والرفق؛ ليتجنبوا بذلك المكابرة التي هي الحائل الوحيد بينهم وبين الإذعان إلى الحق، وصفح النبيء صلى الله عليه وسلم وعفوه ورحمته كان سببا في دخول كثير في الإسلام "[1]، وصدق الله العزيز حين قال: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[التوبة: ١٢٨].

وقد تمثل خلق الرفق واللين في المصطفى صلوات الله وسلامه عليه حتى بلغ مبلغا عظيما منقطع النظير، وكان يعالج به أمته وسائر خلق الله تعالى حتى ملك نواصيهم، واجتمعت قلوبهم على محبته وتقديمه على النفس والمال والأهل والولد، وأقر له بذلك القريب والبعيد والمؤمن والكافر وعن أبي هريرة أن رجلا أتى النبي يتقاضاه، فأغلظ، فهم به

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣/٢٦٠.

أصحابه، فقال رسول الله: " دعوه فإن لصاحب الحق مقالا"، ثم قال:" **أعطوه سنا مثل سنه**"، قالوا: يا رسول الله، إلا أمثل من سنه، فقال: " **أعطوه فإن من خيركم أحسنكم قضاء**"(١).

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن يهود أتوا النبي فقالوا: السام عليكم . يعني: الموت عليكم فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله وغضب الله عليكم، قال: "مهلا يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش"، قالت: أولم تسمع ما قالوا؟! قال: "أولم تسمعي ما قلت؟! رددت عليهم، فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم في"(٢).

ولقد كان يأتيه الرجل وليس على وجه الأرض أبغض إليه منه فما إن يراه ويرى رفقه وتعامله إلا ويتحول من ساعته وليس على وجه الأرض أحب إليه منه، وشواهد ذلك من سنته كثيرة ومن ذلكم، فهذا ثمامة رضي الله عنه عندما جيء به وربط في سارية من سواري المسجد فكان عليه الصلاة والسلام يمر عليه ويحادثه ويتكلم معه برفق إلى أن أعلن إسلامه رضي الله عنه وقال:" يا محمد والله ما كان على وجه الأرض أبغض إلي من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي، ووالله ما كان من دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الأديان إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلي "

---

(١) صحيح البخاريُّ برقم (٢١٤١).

(٢) صحيح البخاريُّ برقم (٥٥٦٥) ومسلمٌ برقم (٤٠٢٧).

فتحول رضي الله عنه وليس شخص أحب إليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أرض أحب إليه من أرضه عليه الصلاة والسلام.

فالرفق بالمسلمين لا سيما الجاهل ومن في حكمه باب عظيم من أبواب التأليف بين القلوب في الإسلام؛ روى مسلم في صحيحه عن معاوية بن الحكم قال: لما قدمت على رسول الله علمت أمورا من أمور الإسلام فكان فيما علمت أن قال: لي إذا عطست فاحمد الله، وإذا عطس العاطس فحمد الله فقل: يرحمك الله، قال: فبينما أنا قائم مع رسول الله في الصلاة إذ عطس رجل فحمد الله، فقلت: يرحمك الله، رافعا بها صوتي فرماني الناس بأبصارهم حتى احتملني ذلك، فقلت: ما لكم تنظرون إلي بأعين شزر؟! قال: فسبحوا، فلما قضى رسول الله الصلاة قال: من المتكلم؟! قيل: هذا الأعرابي، قال: فدعاني رسول الله فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن "[1].

وجاء في الحديث الصحيح أن أعرابيا دخل المسجد وبال في طائفة منه فقام إليه الصحابة سراعا ينهرونه ويزجرونه فقال النبي عليه الصلاة والسلام: " دعوه، وأهريقوا على بوله ذنوبا من ماء أو سجلا من ماء فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين " فأثر هذا الرفق في الرجل

---

(١) صحيح مسلم في صحيحه برقم (٨٣٦).

فقال: " اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا " فقال النبي عليه الصلاة والسلام: "لقد حجرت واسعا"[١] .

والرفق مع الناس واللين معهم والتيسير عليهم من أعظم أبواب الأخلاق الإسلامية، بل من أعظم صفات الكمال التي يسود بها العظماء من البشر، يحبها الله سبحانه وتعالى، ويعطي عليها من الأجر والثواب ما لا يعطي على غيرها، وصاحب الرفق قريب من الناس هين سهل رقيق رحيم محرم على النار، قال صلى الله عليه وسلم: "حرم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس"[٢]، عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير"[٣].

إن الرفق واللين من المطالب الحياتية والاجتماعية التي لا تستقيم الحياة السوية إلا بها، يتألف به المرء القلوب، وتنقاد له النفوس، ويملك المودة والمحبة والإجلال، ولا غنى للمرء أبدا من التحلي به في معاملة أهله وجيرانه وأصحابه وإخوانه المسلمين؛ وفي الحديث الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها أنه قال: "إذا أراد الله عز وجل بأهل بيت خيرا أدخل عليهم الرفق" [٤].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٥٥٥١).

(٢) رواه أحمدُ في مسنده برقم (٣٨٣٩) وقال عنه شعيب الأرناؤوط: حسن بشواهده.

(٣) رواه الترمذي برقم (٢٠١٣) وصححه الالباني في السلسة الصحيحة برقم (٥١٩).

(٤) رواه أحمد في مسنده برقم (٢٤٤٧١) وقال عنه شعيب الأرناؤوط: صحيح.

والعنف والفظاظة ما فشتا في مجتمع من المجتمعات أو أسرة من الأسر إلا تقطعت بينهم حبال الصلة، وفسدت علائق المحبة والأخوة، وسادت البغضاء والوحشة؛ وينبغي لمن لم يكن رفيقا لينا حليما أن يعود نفسه على ذلك، فهذا الأحنف بن قيس كان من أحلم الناس، وذكر أصحاب التاريخ من حلمه أعاجيب وغرائب، ومع ذلك سأله بعضهم عن حلمه فأسر إليه وقال: لست والله بحليم لكني أتحالم، وإني ليصيبني من الغضب مثل ما يصيبكم لكني أتصبر، وقال عروة بن الزبير: رب كلمة ذل احتملتها أورثتني عزا طويلا.

الرفق أمر الله به عباده المؤمنين

وقد أوصى الله عباده المؤمنين بالرفق بقوله: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾[البقرة: ٨٣] قال لإمام الطبري في تفسير هذه الآية:" أمرهم أن يقولوا للناس حسنا قال الحسن: لين القول، من الأدب الحسن الجميل والخلق الكريم، وهو مما ارتضاه الله وأحبه"،[1] إنه الرفق الذي يمس بلطفه القلوب القاسية فيحولها من قسوتها وجفوتها إلى تعاطفها وتجاذبها، ومن شدتها وغلظتها إلى رقتها ولطفها.

وقال تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾ [الحجر: ٨٨]، فالمؤمن رفيق في أقواله وأفعاله وفي جميع أحواله، هين التعامل، رقيق المعشر،

(١) تفسير الطبري ٢/٢٩٦.

وقد وصف الله عباده المتصفين بالرفق واللين بانهم: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣] قال الإمام الألوسي في تفسير هذه الآية:" ﴿ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ بيان لحالهم في المعاملة مع غيرهم إثر بيان حالهم في أنفسهم أو بيان لحسن معاملتهم وتحقيق لليهم عند تحقق ما يقتضي خلاف ذلك إذا خلى الإنسان وطبعه أي إذا خاطبوهم بالسوء قالوا تسلما منكم ومتاركة لا خير بيننا وبينكم ولا شر، "[1].

وعند أحمد بسند صحيح أنه قال: "إن في الجنة لغرفا يرى بطونها من ظهورها وظهورها من بطونها، أعدها الله تعالى لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلى لله بالليل والناس نيام"[2] إن الرفق سبب للخير كله؛ إذ يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع غيره، ويثيب الله تعالى عليه ما لا يثيب على ما سواه، وهو من أقوى الأسباب الموصلة إلى محبة الله سبحانه وتعالى ومرضاته، وسبب عظيم للنجاة والفلاح في الدنيا والآخرة. عن عائشة قالت: قال رسول الله : "إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما

---

(١) تفسير الألوسي١٤/١٣٥.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٣٣٧) وقال شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره.

سواه"[١] ، وعن جرير بن عبد الله البجلي أنه قال: "من يحرم الرفق يحرم الخير" [٢].

إن الرفق يعني: الاتصاف باللين والسهولة في الأقوال والأفعال، والأخذ بالأسهل، والدفع بالأخف، والرفق يتضمن الرحمة بالمؤمنين، ولطف الرعاية لهم، والبشاشة والسماحة في التعامل معهم.

إن صاحب اللفظ القاسي، والقلب الغليظ ينفر الناس منه ويتحاشون الجلوس إليه، فلا تقبل منه دعوة ولا يسمع منه توجيه، ولا يرتاح إليه جليس، نعم وإن كان صالحا تقيا، بل حتى لو كان نبيا، وعلى قدر ما يغلظ الإنسان ويتتبع الهفوات تنخفض منزلته عند الله وعند الناس، وعلى قدر ما يتجاوز عن العثرات تدوم مودته عند البريات وقد روي أن أبا الدرداء مر على رجل قد أصاب ذنبا والناس يسبونه، فقال أبو الدرداء: أرأيتم لو وجدتموه ساقطا في أسفل بئر ألم تكونوا مستخرجيه؟! قالوا: نعم والله، فقال: فإنه في كربة، إنها القلوب الكبيرة، قلما تستجيشها دوافع القسوة عن التعقل والحلم، إنها إلى العفو والصفح أقرب منها إلى الانتقام والبطش.

إن الرجل المسلم الموفق يلتمس للناس الأعذار قدر المستطاع، وإن على الأب الشفيق والأم الرؤوم وعلى أصحاب المسؤوليات أن يرفقوا

---

(١) صحيح مسلم برقم (٤٩٦٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (٤٦٩٧).

بمن تحت أيديهم فلا يأخذون إلا بحق ولا يدفعون إلا بالحسنى ولا يأمرون إلا بما يستطاع﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وعلى قدر ما يمسك الإنسان نفسه، ويكظم غيظه، ويملك لسانه، تعظم منزلته عند الله وعند الناس

وسطية الإسلام بين الرفق والشدة

والإسلام شريعة وسط وحنيفية سهلة، مبناها على التيسير ورفع الحرج والبعد عن المشقة والتكلف والتنطع والتشدد والتعمق والدعوة إلى اليسر والسهولة، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرسل رسولا أو بعث بعثا من أصحابه في بعض أمره أوصاهم بقوله: "بشروا ولا تنفروا، يسروا ولا تعسروا؛ فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين"(١) قال الإمام النووي معلقا على هذا الحديث:" وفي هذا الحديث : الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد، محضة من غير ضمها إلى التبشير، وفيه: تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليهم، وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان، ومن بلغ ومن تاب من المعاصي كلهم يتلطف بهم ويتدرج معهم في أنواع الطاعة قليلا قليلا، فمتى يسر على الداخل في الطاعة سهلت عليه ، وكانت عاقبته غالبا التزايد منها، ومتى عسرت

---

(١) صحيح مسلم برقم (٣٢٦٢).

عليه أو شك أن لا يدخل فيها، وإن دخل أو شك أن لا يدوم أو لا يستحيلها"[١] .

إن الرفق واللين في التعامل مع الناس والأناة والتؤدة في جميع الأقوال والأفعال من الصفات المحمودة في حياة البشر؛ تدل على الفهم والفقه، وتنم عن الإيمان والسماحة والقرب من الله تعالى ومن خلقه، وقد صحَّ في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:" التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة" [٢].

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ٦/١٧٠.

(٢) سنن ابي داوود، برقم (٤١٧٦).

١٢- خلق الإيثار

الإيثار في اللغة

الإيثار مصدر من قولهم: آثره عليه يؤثره، بمعنى فضَّله وقدَّمه، وهو مأخوذ من (أ ث ر) والتي لها ثلاثة أصول: تقديم الشيء، وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي"[١]

الإيثار في الاصطلاح

عرَّفه الجرجاني بقوله:" أن يقدم غيره على نفسه في النفع له والدفع عنه، وهو النهاية في الأخوة"[٢]، وقال القرطبي في تعريف الإ يثار:" الإيثار: هو تقديم الغير على النفس في حظوظها الدنيوية، ورغبة في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة"[٣]

فضل الإيثار ومكانته

الإيثار خلق من أخلاق الإسلام العظيمة الجليلة، هو مرتبة راقية من مراتب البذل والكرم، ومنزلة عظيمة من منازل العطاء والسخاء، وهو

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٧٥/١ بتصرف يسير.

(٢) التعريفات، للجرجاني صـ ١٢.

(٣) تفسير القرطبي٢٦/١٨.

خُلُق أثنى الله عز وجل على المتصفين به، وبين أنهم المفلحون، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

والإيثار خلق أسكنه الله قلوب المؤمنين، فبذلوا وضحوا لوجه الله رب العالمين، فاقتحم أصحابه العقبة، وفكوا الرقبة، فكم من أيد لهم سخت آناء الليل وأطراف النهار، فما أعظم فوز أهل الإيثار! يوم خلفوا الدنيا وراء ظهورهم، واستقبلوا الآخرة أمام عيونهم.

والإيثار خُلُق يحمل صاحبه على البذل والعطاء، والكرم والسخاء، مما تحبه النفس من الكنوز والأموال، قال الله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٢] قال ابن عاشور: " الإيثار ذلكم الخلق الذي يدل على صفاء النفس ونقائها من البخل والشح والأنانية، فلصاحب الإيثار نفس تواقة إلى الخير، مسرعة إلى الإحسان وقد جعل الله تعالى الإنفاق غاية لنيل البر، ومقتضى الغاية أن نوال البر لا يحصل بدونها"(١).

إنه الإيثار الذي به تحصل الكفاية الاقتصادية والمادية في المجتمع، فطعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة، فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٥٦/٣

يقول: "طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية"(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرا؟ قال: "أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان"(٢).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " اتقوا تقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم "(٣). إنه الإيثار الذي يزرع في النفوس المودة والمحبة، والرأفة والرحمة، وينزع من القلوب الكراهية والبغضاء، فإن القلوب مجبولة على تعظيم صاحب الإيثار ومحبته، كما أنها مجبولة على بغض البخيل المستأثر ومقته.

صور من خلق الإيثار

١- الإيثار مع الخالق سبحانه وتعالى

الإيثار مع الله أن يفعل المرء كل ما يحبه الله تعالى ويأمر به، وإن كان ما يحبه الله مكروها إلى نفسه، ثقيلا عليه، الإيثار مع الله، وأن

---

(١) صحيح مسلم، برقم (٥٤٨٩).
(٢) صحيح البخاري، برقم (١٣٥٣) ومسلم برقم (٢٤٣٠)
(٣) صحيح مسلم برقم (٦٧٤١)

يترك المرء ما يكرهه الله تعالى وينهى عنه، وإن كان محبوبا إلى النفس، تشتهيه، وترغب فيه، فتؤثر رضا الله وتقدمه على رضا نفسك وهواك، وعلى رضا الناس أجمعين، إذ لا رضا يقدم على رضاه، ولا طاعة فوق طاعته، ولا محبة تفوق محبته، فالكل عليه أن يسعى إلى مرضات خالقه ومولاه.

والإيثار مع الله يقتضي من العبد أن يداوم على طاعة الله، ألاَّ ينشغل بدنياه عن أخراه، إذ كيف لعاقل أن يقدم الدنيا على الآخرة قال سبحانه وتعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ ﴾ [الأعلى: ١٤ – ١٧]، فهنيئا لمن ملأ دنياه بطاعة مولاه، ويا خسارة من باع أخراه بدنياه.

ومما ينبغي التنبه عليه أن الإيثار إنما يكون في أمور الحياة والمعاملات، ولا إيثار في القربات ولا في العبادات والطاعات بل تعاون وتنافس في الخيرات؛ لأن الكل يريد أن يكون قريبا من ربه ومولاه، ويسعى إلى أن يكثر من حسناته، ويخفف من سيئاته ولذا قال ربنا سبحانه: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقال عز وجل: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين:]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا،

ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا"[1].

٢ـ الإيثار مع الخَلْق

ويكون هذا الإيثار بحب الخير للآخرين، وتطهير النفس من كل أنانية وكراهية وشحناء، حين يستشعر العبد معنى الأخوة التي تربطه بكل مسلم من حوله، فإن شر ما يصيب المجتمع هو التفكك وضعف الروابط بين أبنائه، وذلك بغلبة الأنانية على أنفسهم، عندما يذكر المرء نفسه، وينسى أخاه، عندما يقول كل واحد: نفسي نفسي، وعندما يقول كل فرد فيه: لي، ولا يقول: علي عندما تعظم الأنانية في نفسه على حساب غيره، فمن لليتيم إذا فشت الأنانية وحب الذات في المجتمع؟ ومن للأرملة المسكينة؟ ومن للفقير الجائع؟ ومن للمشرد الضائع؟ من لهؤلاء إذا أصبح الكل يقول نفسي نفسي، ولا يهمه إلا مصالحه ومآربه، فأين الإيثار الذي علمه النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم لأمته؟ وأين الإيثار الذي تربى عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم؟، فهلموا جميعا لنقف مع هذه النماذج المشرقة في الإيثار.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٧٩) وصحيح مسلم، برقم (٦٦١) وللفظ له.

نماذج من أهل الإيثار

أولا: إيثار نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

أعظم نموذج في الإيثار هو محمد صلى الله عليه وسلم، فهو قدوة المُؤْثِرِينَ، فلم يكن صلى الله عليه وسلم يستأثر بشيء دون أصحابه، بل كان يشاركهم في طعامه وشرابه، وربما منع نفسه وأهله ليعطي السائل والمحروم، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ببردة، فقالت: يا رسول الله، أكسوك هذه، فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه، اكسنيها، فقال: "نعم" فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم لامه أصحابه، قالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أخذها محتاجا إليها، ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئا فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي صلى الله عليه وسلم، لعلي أكفن فيها(١).

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال:" ولله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا

---

(١) صحيح البخاري، برقم (٥٥٧٦)

ليشبعني، فمر ولم يفعل، ثم مر بي عمر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر فلم يفعل، ثم مر بي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم، فتبسم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: "يا أبا هر" قلت: لبيك يا رسول الله، قال: "الحق" ومضى فتبعته، فدخل، فاستأذن، فأذن لي، فدخل، فوجد لبنا في قدح، فقال: "من أين هذا اللبن؟" قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، قال: "أبا هر" قلت: لبيك يا رسول الله، قال: "الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي" فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بد، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا، فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: "يا أبا هر" قلت: لبيك يا رسول الله، قال: "خذ فأعطهم" قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إلي فتبسم، فقال: "أبا هر" قلت: لبيك يا رسول الله، قال: "بقيت أنا وأنت" قلت: صدقت يا رسول الله، قال: "اقعد فاشرب" فقعدت فشربت، فقال: "اشرب" فشربت، فما زال

يقول:" اشرب" حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أجد له مسلكا، قال: "فأرني" فأعطيته القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة "[١].

ثانيا: إيثار الصحابة رضوان الله عليهم

وهاهم الصحابة الكرام يضربون أروع الأمثلة في الإيثار وأجملها، ومن يتأمل في قصص إيثارهم ظن ذلك ضربا من خيال، لولا أنه منقول لنا عن طريق الأثبات، وبالأسانيد الصحيحة، وكيف لا يكونون أهل إيثار وهم الذين تربوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي علمهم الإيثار وحثَّهم عليه، وبيَّن لهم فضله ومكانته، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو[٢] أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم"[٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يضيف هذا؟"، فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك،

---

(١) صحيح البخاري، برقم (٥٩٧١)، باختصار.

(٢) أرملوا بمعنى: ذهاب زادهم، ينظر: غريب الحديث، لابن الجوزي ١/ ٤١٥

(٣) صحيح البخاري، برقم (٢٣٠٦) ومسلم برقم (٤٥٥٦).

وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونوَّمت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "ضحك الله الليلة، أو عجب، من فعالكما" فأنزل الله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

ولما طعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:" يا عبد الله بن عمر، اذهب إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ثم سلها، أن أدفن مع صاحبي، قالت: كنت أريده لنفسي، فلأوثرنه اليوم على نفسي، فلما أقبل، قال: له ما لديك؟ قال: أذنت لك يا أمير المؤمنين، قال: " ما كان شيء أهم إلي من ذلك المضجع، فإذا قبضت فاحملوني، ثم سلموا، ثم قل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي، فادفنوني، وإلا فردوني إلى مقابر المسلمين"(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلا، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما أنزلت: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾ [آل عمران:

---

(١) صحيح البخاري، برقم (١٣٠٥)

٩٢] قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بخ ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين" قال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وفي بني عمه(١).

وإليكم هذه الصورة من صور الإيثار التي لا نظير لها، فعن أبي الجهم بن حذيفة العدوي، قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من ماء وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه، فإذا أنا به، فقلت: أسقيك؟ فأشار إلي أن نعم. فإذا رجل يقول آه. فأشار ابن عمي إلي أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال: آه، فأشار هشام: انطلق به إليه، فجئته فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات"(٢).

فانظروا إلى إيثار هؤلاء الأفاضل الكرام، لقد بلغ الإيثار والسخاء بأحدهم أن يقول: لو أن الدنيا كلها لي فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقللتها له، فكانوا أهل إيثار وسخاء، كانوا أحبة في الله متراحمين

---

(١) صحيح البخاري، برقم (١٣٦٨).

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي ٣ /٢٥٨.

متواصلين متباذلين، يوم كان القرآن دليلهم، يوم كان هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم إمامهم وأمامهم، يوم كانوا عاملين بكتاب الله، آخذين بسنة رسول الله، متخلقين بأخلاق الإسلام، فأين هذه النماذج الكريمة اليوم؟! يوم صاح الأيتام، وصاحت الأرامل، وصاح المحتاج المكروب، فلم تجد هذه الحناجر لها مغيثا غير الله جل جلاله؟! فلنتخلق بخلق الإيثار؛ حتى ينعم أبناء المجتمع بالتكافل والتعاون.

١٣. خلق الكرم

الكرم في اللغة

الكرم: ضد اللؤم، وقد كرُم الرجل (بالضم) فهو كريم، وقوم كِرام وكُرماء، ونسوة كرائم، ويقال: رجل كرم أيضا، وامرأة كرم، ونسوة كرم. والكُرام بالضم، مثل الكريم. فإذا أفرط في الكرم قيل: كرَّام (بالتشديد)، وكارمت الرجل، إذا فاخرته في الكرم، فكرمتُه أكرمُه (بالضم)، إذا غلبته فيه، والكريم: الصفوح، وأكرمت الرجل أكرمه، ويقال في التعجب: ما أكرمه لي، وهو شاذ لا يطرد في الرباعي، والكرم: كرم العنب"[١] .

الكرم في الاصطلاح

عرَّف العلماء الكرم بتعريفات متعددة نذكر بعضها: قال ابن مسكويه:" الكرم إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر، الكثيرة النفع"[٢]

وقال المناوي:" الكرم إفادة ما ينبغي لا لغرض، فمن وهب المال لجلب نفع أو دفع ضر أو خلاص من ذم غير كريم"[٣].

---

(١) الصحاح في اللغة، للجوهري٢/ ١١٣باختصار.

(٢) تهذيب الأخلاق، لابن مسكويه صـ ٧.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي صـ ٢٦٨.

خلق الكرم ومكانة في الإسلام

الكرم من الأخلاق العريقة، والقيم النبيلة، عرفها منذ الأزل أصحاب النفوس العظيمة في تعاملاتهم، وجعلوها دليل الرفعة والفخار، لما فيها من الإيثار، وعلو الهمم والأقدار، وحينما جاء الإسلام أضفى على الكرم معايير جديدة، ووجهه نحو مقاصد سامية رشيدة، فاتجه به إلى القيم الروحية، والمعاني الدينية، فلم يعد الباذل يرجو الفخر والثناء من الورى، وإنما غايته الثواب والجزاء من الله تعالى.

إن الكرم يؤلف بين أبناء الأمة ويجعل منها جسدا واحد إذا اشتكى من عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، إن منبع ذلك الخلق هو إرادة وجه الكريم جل جلاله والكرم تفرع وتشعب في جميع شعب الإيمان وفي شتى مناحي الحياة؛ لهذا أوصى الله به نبيه العظيم، وحثنا عليه في كتابه الكريم، وجعله من دلائل الإيمان، وشرفه بالذكر في القرآن، قال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[البقرة: ٢٥٤]، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" أي: أنفقوا في سبيل الله من أموالكم، وتصدقوا منها، وآتوا منها الحقوق التي فرضناها وادخروا لأنفسكم عند الله من أموالكم، بالنفقة منها في سبيل الله، والصدقة على أهل المسكنة والحاجة، وإيتاء ما فرض الله عليكم فيها، وابتاعوا بها ما عنده مما أعده لأوليائه من الكرامة، بتقديم ذلك لأنفسكم، ما دام لكم

السبيل إلى ابتياعه، بما ندبتكم إليه، وأمرتكم به من النفقة من أموالكم، من قبل مجيء يوم لا تقدرون فيه على ابتياع ما كنتم على ابتياعه؛ لأنه يوم جزاء وثواب وعقاب، لا يوم عمل واكتساب" (١).

دواعي الكرم وأسبابه

إن للكرم دواع تدعوا إليه، وأسبابا تحث عليه، وتدفع المرء إلى الجد في طلبه، والحرص على تحصيله، ذلك أن القرآن الكريم قرر أن المال مال الله وأن الناس مستخلفين فيه، ينفقون منه، ويتمتعون به، يقول الله سبحانه:﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[النور: ٣٣]، ومن هنا يختلف مفهوم الكرم في الإسلام عن أهل المناهج الأخرى، فالمسلم حينما يبذل ماله لا ينظر إلى ثناء الناس، ولا يبغي الشهرة وذيوع الصيت، وإنما يصرف نيته إلى الله، فيجعل غايته رضاه، وهدفه الفوز بثوابه، وطاعته لربه، وحبه لإخوانه.

الكريم من أسماء الله تعالى

إن الكريم اسم من أسمائه تعالى قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانفطار: ٦]، قال الإمام البغوي في تفسيره لهذه الآية:" إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته كأنه لقنه

---

(١) تفسير الطبري٥/ ٣٨٢باختصار.

الإجابة حتى يقول: غرني كرم الكريم وقيل للفضيل بن عياض: لو أقامك الله يوم القيامة فقال: ما غرك بربك الكريم؟ ماذا كنت تقول؟ قال: أقول غرني ستورك المرخاة، وقال يحيى بن معاذ: لو أقامني بين يديه فقال ما غرك بي؟ فأقول: غرني بك بِرُّك بي سالفا وآنفا، وقال أبو بكر الوراق: لو قال لي: ما غرك بربك الكريم؟ لقلت: غرني كرم الكريم"[1] .

وقال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ﴾ [العلق: ٣]، قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية:" ذكروا في بيان أكرميته تعالى وجوها **أحدها:** أنه كم من كريم يحلم وقت الجناية ، لكنه لا يبقى إحسانه على الوجه الذي كان قبل الجناية، وهو تعالى أكرم لأنه يزيد بإحسانه بعد الجناية، **وثانيها:** قد يكون الإنسان كريم لكن ربك أكرم وكيف لا وكل كريم يَنال بكرمه نفعا إما مدحا أو ثوابا أو يدفع ضررا، أما ربك فالأكرم إذ لا يفعله إلا لمحض الكرم **وثالثها:** أنه الأكرم؛ لأن له الابتداء في كل كرم وإحسان وكرمه غير مشوب بالتقصير "[2] .

ومن كرمه أن جعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وجعل السيئة بواحدة و يعفو سبحانك يا غني يا كريم ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝١٦٠ ﴾ [الأنعام: ١٦٠] .

---

(١) تفسير البغوي٨/٣٥٦، بتصرف يسير.

(٢) مفاتيح الغيب، للرازي ١٧/١٠٧ باختصار.

وقد جاء في السنة النبوية بيان أن الكرم من صفات الله سبحانه وتعالى، فعن سلمان الفارسي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "إن الله حيي كريم يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين"(١).

الكرم من أخلاق الأنبياء والمرسلين

والكرم من صفات الأنبياء والمرسلين فهم صفوة خلق الله تعالى وقد اتصفوا بمعالي الأمور وهذه بعض مشاهد الكرم في حياة الأنبياء.

أولا: كرم خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام

اعلم أن أول من ضيف الضيفان خليل الرحمن عليه السلام وهو الأب الثالث للبشرية ، وإمام الحنفاء الذي اتخذه الله خليلا، وقد أثنى الله تعالى عليه في كتابه العزيز في إكرام ضيفه من الملائكة قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ [هود: ٦٩ – ٧٠] قال الشنقيطي في تفسيره لهذه الآية" إن إبراهيم لما سلَّم على رسل الملائكة وكان يظنهم ضيوفا من الآدميين، أسرع إليهم بالإتيان بالقِرَى وهو لحم

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٥٥٦) ، وصححه الالباني.

عجل حنيذ وأنهم لما لم يأكلوا أوجس منهم خيفة فقالوا: ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ وأخبروه بخبرهم، يؤخذ من قصة إبراهيم مع ضيفه هؤلاء أشياء من آداب الضيافة منها: تعجيل القرى لقوله: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ ومنها: كون القِرىَ من أحسن ما عنده؛ لأنهم ذكروا أن الذي عنده البقر وأطيبه لحما الفتى السمين المنضج ومنها: تقريب الطعام إلى الضيف ومنها: ملاطفته بالكلام بغاية الرفق ، كقوله ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٧] "[1] .

وقال الإمام الغزالي في الإحياء: وكان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا أراد ان يأكل خرج ميلا أو ميلين يلتمس من يتغدى عنده، وكان يكنى أبا الضيفان، ولصدق نيته فيه دامت ضيافته في مشهده إلى يومنا هذا، فلا تنقضي ليلة إلا ويأكل عنده جماعة من بين ثلاثة إلى عشرة إلى مائة"[2]

ثانيا: كرم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

أما عن كرم اكرم الخلق محمد صلى الله عليه وسلم فالحديث عن كرمه يطول ولكننا نأخذ قطر من بحر جوده وكرمه، قال ابن شهاب: حدثني سعيد بن المسيب، إن صفوان قال: " والله لقد أعطاني رسول الله

---

(١) أضواء البيان، للشنقيطي٢/ ٢٩٧.

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي ١/ ٣٦٩.

صلى الله عليه وسلم ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي" [١].

وقد كان صلى الله عليه وسلم في قمة الكرم بالمال، فعن أنس رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله على الإسلام شيئا إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يلبث يسيرا حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها"[٢]، وعن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما بقى منها؟" قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: "بقى كلها غير كتفها"[٣]، ومعناه: تصدقوا بها إلا كتفها، فقال: بقيت لنا في الآخرة إلا كتفها

(١) صحيح مسلم برقم (٤٢٧٧).
(٢) صحيح مسلم برقم (٤٢٧٥).
(٣) سنن الترمذي برقم (٢٤٧٠).

مجالات الجود والكرم

مما ينبغي أن يُعلم أن الكرم ليس مقتصراً على بذل المال فحسب، بل مفهومه أوسع، وصورهم أعم وأشمل، ومن صوره العديدة ما يلي:

المجال الأول: الكرم بالنفس وبذلها في سبيل الحق

أعلى مجالات الكرم أن يجود المسلم بنفسه لله تعالى يقول الله جل في علاه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ﴾ [التوبة: ١١١] قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:" يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له، قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت! فقال: "أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم". قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: "الجنة".

قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل، فنزلت: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ "[1].

ومن أروع صور الكرم والجود بالنفس كرم خليل الرحمن بنفسه لما ألقى في النيران وكرمه لما قدم ولده اسماعيل للذبح امتثالا لأمر الله، وكرم وجود إسماعيل عليه السلام لما اخبره خليل الرحمن بانه يذبحه فقبل ذلك بكل صبر وثبات.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كريم بنفسه فقد تمنى الشهادة في سبيل الله، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "انتدب الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي، أن أرجعه، بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنة ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل"[2] .

المجال الثاني: إكرام الضيف

من مجالات الكرم التي حثنا عليها الإسلام إكرام الضيف فإن ذلك من علامات الإيمان، فعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله:" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة والضيافة

---

(١) تفسير ابن كثر ٤/٢١٨.

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٥).

ثلاثة أيام فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه"[١]، وعن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: إني مجهود فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق نبيا ما عندي إلا ماء ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك فقال: "من يضيف هذا الليلة رحمه الله" فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني قال: فعلليهم بشيء فإذا دخل ضيفنا فأضيئ السراج وأريه أنا نأكل فإذا أهوى ليأكل قومي إلى السراج حتى تطفئيه قال: فقعدوا وأكل الضيف فلما أصبح غدا على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " لقد عجب الله من صنيعكما الليلة"[٢].

قال حكيم بن حزام رضي الله عنه: "ما أصبحت صباحا قط فرأيت بفنائي طالب حاجة قد ضاق بها ذرعا فقضيتها إلا كانت من النعم التي أحمد الله عليها، ولا أصبحت صباحا لم أر بفنائي طالب حاجة، إلا كان ذلك من المصائب التي أسأل الله عز وجل الأجر عليها".

---

(١) صحيح البخاري برقم (٥٦٧٠).

(٢) صحيح ابن حبان برقم (٥٣٧٦).

المجال الثالث: الكرم ببذل المال

إن الكريم يصل رحمه، ويحسن إلى أهله، ويواسي المسكين، ويبذل المال لمن طلبه في وجوه البر، وهذه من صفات المؤمنين الذين وعدهم بعظيم الاجر والمثوبة كما أخبر رب العالمين سبحانه وتعالى عنهم بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]،قال سيد قطب في ظلاله حول هذه الآية:" فهم ثابتون على البذل، ماضون على المنهج، لا تغيرهم السراء ولا تغيرهم الضراء، السراء لا تبطرهم فتلهيهم، والضراء لا تضجرهم فتنسيهم، إنما هو الشعور بالواجب في كل حال، والتحرر من الشح والحرص، ومراقبة الله وتقواه، وما يدفع النفس الشحيحة بطبعها، المحبة للمال بفطرتها، إلا دافع التقوى، ذلك الشعور اللطيف العميق، الذي تشف به الروح وتخلص، وتنطلق من القيود والأغلال"(١).

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب ١/ ٤٤٦

المجال الرابع: إكرام الوالدين والأقربين

ومن مجالات الكرم أن يُكرم المرء والديه فإن هذا من الكرم الذي أوجبه الله تعالى علينا وحثنا عليه قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٥]، قال القاسمي في تفسيره لهذه الآية:" أي: ما أنفقتم من خير فللوالدين قبل غيرهما؛ ليكون أداء لحق تربيتهما مع كونه صلة الوصل وصدقة والأقربين بعدهما ليكون صلة وصدقة واليتامى بعدهم؛ لأن فيهم الفقر مع العجز والمساكين بعدهم لاحتياجهم، وابن السبيل بعدهم؛ لأنه كالفقير لغيبة ماله، "[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله من أولى الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك"[(٢)]. وعن أبي الطفيل رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم لحما بالجعرانة وأنا غلام شاب فأقبلت امرأة فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسط لها رداءه فقعدت عليه، فقلت: من هذه؟ قالوا: أمه التي أرضعته [(٣)].

---

(١) محاسن التأويل، للقاسمي٢/ ٩٨.

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٥١٤).

(٣) سنن أبي داود برقم (٥١٤٤) وضعفه الألباني.

ومن وجوه الكرم مع الأهل أن يكرم لرجل زوجته التي هي أمانة عنده فلا يهينها ولا يشتمها ولا يلعنها بل يكون سهلا لينا فقد أمر الله تعالى الرجل بمعاشرة زوجته بالمعروف فقال سبحانه: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي"(١)، وعن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا"(٢).

وكان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنه جميل العشرة دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه بل ويسابقهن، فعن عائشة رضى الله عنها أنها كانت مع النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر قالت فسابقته فسبقته، فلما حملت اللحم سابقته فسبقنى فقال: "هذه بتلك السبقة "(٣)، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلا قبل أن ينام، يؤانسهم بذلك صلى الله عليه وسلم وقد قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١] .

---

(١) سنن ابن ماجه برقم (١٩٧٧) ، وصححه الالباني.

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٧١).

(٣) سنن أبي داوود برقم (٢٥٨٠) ، وقال عنه الالباني: صحيح.

المجال الخامس: من الكرم قضاء حوائج الناس

ومن مجالات الكرم أن يسخر الإنسان نفسه لقضاء حوائج المحتاجين والسعي في قضاء حوائج الناس من الشفاعة الحسنة التي أمرنا الله تعالى بها فقال: ﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا ٨٥ ﴾ [سورة النساء: ٨٥]' قال الشعراوي في تفسيره:" الشفاعة الحسنة هي التوسط بالقول في وصول إنسان إلى منفعة دنيوية أو أخروية أو إلى الخلاص من مضرة وتكون بلا مقابل، فكل واحد عنده موهبة عليه أن يضم نفسه لغير الموهوب، والعبد الذي سعى في قضاء حاجة أخيه يكون قد أدى حق نعمة الله فيما تفضل به عليه، ويكون من أثر ذلك أنه لا يسخط أو يحقد غير الواجد للموهبة على ذي الموهبة "[1]' عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه السائل، أو طلبت إليه حاجة. قال: اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ما شاء"[2].

وقد كا ن صلى الله عليه وسلم يطبق هذ الأمر عمليا، فعن أنس بن مالك، قال: كانت الصلاة تقام، فيكلم النبي صلى الله عليه وسلم الرجل

---

(١) تفسير الشعراوي صـ ١٧١٣باختصار.

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٩٥٩٩) ، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

في حاجة تكون له، فيقوم بينه وبين القبلة، فما يزال قائما يكلمه، فربما رأيت بعض القوم لينعس من طول قيام النبي صلى الله عليه وسلم له"[١].

و عن سالم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة"[٢]،وعن سهل بن سعد، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "عند الله خزائن الخير والشر، مفاتيحها الرجال، فطوبى لمن جعله مفتاحا للخير، ومغلاقا للشر، وويل لمن جعله مفتاحا للشر، ومغلاقا للخير"[٣]،

وتابعه في هذ النوع من الكرم أصحبه رضي الله عنهم أجمعين، فقد كانوا يسارعون لخدمة ذوي الحجات والعمل على التخفيف من معاناتهم، فعن أنس رضي الله عنه قال:" كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم أكثرنا ظلا الذي يستظل بكسائه وأما الذين صاموا فلم يعملوا شيئا وأما الذين أفطروا فبعثوا الركاب وامتهنوا وعالجوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٢٦٦٣) ، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) صحيح مسلم برقم (٤٦٧٧).

(٣ صحيح الجامع الصغير برقم (٤١٠٨).

ذهب المفطرون اليوم بالأجر"[١]، وقال عبد الله بن عثمان شيخ البخاري: "ما سألني أحد حاجة إلا قمت له بنفسي فإن تم وإلا استعنت له بالسلطان".

ثمرات الكرم

أولا: محبة الله للكرماء

عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "إن الله كريم يحب الكرماء جواد يحب الجودة يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها" [٢].

ثانيا: بركة في المال

الكرم بركة للمال، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا"[٣]

ثالثا: الكرم من دلائل الإيمان

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم"[١] ، قال ابن عباس رضي

---

(١) صحيح البخاري برقم (٢٦٧٦).
(٢) صحيح الجامع الصغير برقم (١٨٠٠ - ٧٩٧).
(٣) صحيح البخاري برقم (١٣٥١).

الله عنهما: "سادات الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء"، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: "إذا مات السخي، قالت الأرض والحفظة: رب تجاوز عن عبدك في الدنيا بسخائه، وإذا مات البخيل قالت: اللهم احجب هذا العبد عن الجنة كما حجب عبادك عما جعلت في يديه من الدنيا.

فلنتق الله لنعلم أن سعادة المجتمع وأمنه رهين بمبدأ الكرم والكرم، فاسعوا إلى الإنفاق والبذل والعطاء، وتلمسوا حاجة إخوانكم فأفضوها حتى تسود روابط المحبة والإخاء بين أفراد المجتمع.

---

(١) رواه أبو داود برقم (٤٧٩٠) ، وقال الألباني: صحيح.

١٤ـ خلق الإحسان

الإحسان في اللغة

قال ابن منظور:" الإحسان ضد الإساءة، ورجل محسن ومحسان، والمحاسن في الأعمال ضد المساوي، وحسنت الشيء تحسينا زينته، وأحسنت إليه، وروى الأزهري عن أبي الهيثم أنه قال في قوله تعالى في قصة يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام ﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي قد أحسن إلي"(١).

الإحسان في الاصطلاح

قال الراغب الاصفهاني:" الإحسان على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان. والثاني: إحسان في فعله؛ وذلك إذا علَّم عِلْما حسنا، أو عَمِل عملا حسنا، "(٢). وقال المناوي:" الإحسان إسلام ظاهر يقيمه إيمان باطن يكمله إحسان شهودي"(٣)

---

(١) لسان العرب، لابن منظور ١٣/١١٤باختصار.

(٢) المفردات، للراغب الأصفهاني٢٣٦.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي صد ٨.

الإحسان صفة من صفات الله عز وجل

فهو سبحانه المحسن في خلقه، المحسن إلى مخلوقاته، بيده الخير كله، وله ينسب الفضل كله، هو الذي خلق الخلق فأحسنه وجَمَّله وأبدعه على غير مثال سابق؛ قال سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾[السجدة: ٧]، وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٤ ﴾[غافر: ٦٤]، قال الإمام الألوسي في تفسير هذه الآية:" المراد صوركم أحسن تصوير، حيث خلق كلا منكم منتصب القامة بادي البشرة متناسب الأعضاء والتخطيطات متهيأ لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات"(١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤] قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية:" أي أحسن المنشئين إنشاء؛ لأنه أنشأ ما لا يستطيع غيره إنشاءه، ولما كانت دلالة خلق الإنسان على عظم القدرة أسبق إلى اعتبار المعتبر كان الثناء المعقب به ثناء على بديع قدرة الخالق مشتقا من البركة وهي الزيادة"(٢)

---

(١) روح المعاني، للألوسي ١٢٤/١٨.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣٤١/٩.

منزلة خلق الإحسان

الإحسان هو لب الإيمان، وهو روح الإسلام، وهو كمال الشريعة، وهو يدخل في سائر الأقوال والأفعال والأحوال، وأعظم درجات الإحسان: الإحسان مع الله جل وعلا، ثم إحسان المرء مع نفسه وأهله وسائر المخلوقات، حتى يشمل البهائم والعجماوات، ففي صحيح مسلم عن شداد بن أوس قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال: " إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته "[1] فأنت مأمور بالإحسان في كل صغيرة وفي كل كبيرة؛ في كل قول وفي كل فعل، في كل أخذ وفي كل عطاء.

الإحسان إلى الخلق

طُرُق الإحسان إلى الخلق كثيرة ومتنوعة، ومن هذه الطرق، السعي في منافعهم وقضاء حوائجهم فقد جاء في الحديث "**أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في المسجد شهرا، ومن كف غضبه، ستر الله عورته، ومن كظم غيظا، ولو شاء**

---

(١) صحيح مسلم برقم (٣٦١٥).

أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضى يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل، كما يفسد الخل العسل"[١]

ومن وسائل الإحسان إلى الخلق إدخال السرور الابتسامة في وجه أخيك المسلم، فعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "**وتبسمك في وجه أخيك صدقة**"[٢] ، وقال عبيد الله بن المغيرة: سمعت عبدالله بن الحارث قال: "ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٣].

وبالجملة يكون الاحسان إلى الخلق بحسن الخلق، وصدق التعامل، وبذل النصيحة، وتفريج الكربة، وإعانة الضعيف، وإغاثة الملهوف، وإطعام الجائع، والتصدق على المحتاج، وإرشاد التائه، وتعليم الجاهل، والتيسير على المعسر، والإصلاح بين الناس، وهكذا إلى غير ذلك من أخلاق الإسلام الرفيعة، وآدابه العظيمة.

---

(١) صحيح الجامع الصغير برقم (١٧٦).

(٢) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٩٧٠).

(٣) صحيح الترمذي برقم (٢٨٨٠).

من صور الإحسان

للإحسان في حياتنا صور متعددة ، ومن هذه الصور ما يلي:

أولا: الإحسان في العبادة

والإحسان في العبادة؛ أن تؤديها كما أمرك الله وكما بينها لك رسول الله، بأن تجعلها خالصة لوجه الله، وأن تؤديها تامة كاملة بأركانها وواجباتها وسننها ومستحباتها، وأن تؤديها في أوقاتها إن كان لها وقت محدد، وأن تجعلها عبادة تطهر بها قلبك وتزكي بها نفسك، وتغير بها سلوكك وتنمي بها أخلاقك، وقد عرَّف رسول الله الإحسان بقوله:" **أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** "[1]، فمن لم يتغير سلوكه ولم تتحسن أخلاقه بعبادته فليعلم أن عبادته ناقصة، فللعبادة الصحيحة أثر على الأخلاق وأثر على السلوك وأثر على المعاملة، والعبادة لا تخضع للأهواء ولا للآراء ولا لشهوة النفس ونزواتها؛ بل هي ما شرعه الله وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فواجب على العبد أن يتحرى الصواب فيها، وأن يسأل أهل الذكر فيما لا يعلم.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٤٠٤).

ثانيا: الإحسان في القول

فالقول ينبغي أن يكون طيبا حسنا مفيدا، قال سبحانه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [الإسراء: ٥٣] وقال عز وجل: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [البقرة ٨٣] فواجب على المسلم أن يعود لسانه على الكلام الطيب والقول الحسن، أن يستعمله فيما ينفعه في دنياه وفي أخراه، وأن يمسكه عن كل قول سيئ وقبيح، فقد قال عليه الصلاة والسلام: "من كان يؤمن بالله، واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"(١) .

ثالثا: الإحسان إلى الوالدين

ببرهما وطاعتهما في المعروف، بإيصال الخير إليهما، وكف الأذى عنهما، السطر والاستغفار لهما في حياتهما وبعد موتهما، وأحسن إليهما في نظرة العين، ونبرة الصوت وابتسامة الوجه، واحفظ فيهما وصية ربك سبحانه: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ ﴾ [العنكبوت: ٨] ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: أقبل رجل إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله. قال: "**فهل من والديك أحد حي؟**"، قال: نعم، بل كلاهما. قال:

---

(١) صحيح البخاري برقم (٥٥٥٩).

"**فتبتغي الأجر من الله؟**"، قال: نعم. قال: "**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**"[١].

رابعا: الإحسان إلى الجيران

عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت"[٢]، وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف لي أن أعلم إذا أحسنت وإذا أسأت؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم:" **إذا سمعت جيرانك يقولون: قد أحسنت فقد أحسنت وإذا سمعتهم يقولون: قد أسأت فقد أسأت** "[٣]، ورسولنا صلى الله عليه وسلم يوصي أبا هريرة فيقول "**وأحسن جوار من جاورك تكن مسلما**"[٤]

---

(١) صحيح مسلم برقم (٤٦٢٤٩).

(٢) صحيح مسلم برقم (٦٩).

(٣) رواه أحمد برقم (٣٨٠٨) ، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) صحيح ابن ماجه برقم (٤٢٠٧).

خامسا: الإحسان إلى المساكين

ويكون الإحسان إليهم بسد جوعتهم، وستر عورتهم، والحث على إطعامهم، وعدم المساس بكرامتهم، فعن أبي هريرة، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار**"(١) ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة**" (٢)، وقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن أن المؤمن يسلم من عذاب الآخرة إذا أحسن إلى غيره بأن أعتق رقبة مسلمة أو أعان على عتقها أو أحسن في إطعام في أيام مجاعة قال الله عز وجل: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [البلد: ١١ – ١٦].

سادسا: الإحسان إلى الزوجة

قال الله تعالى: ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة: ٣٦] قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية:" واعلم أن المراد من الإحسان هو أنه

---

(١) رواه مسلم برقم (٥٢٩٥).

(٢) صحيح مسلم برقم (٤٨٦٧).

إذا تركها أدى إليها حقوقها المالية، ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء ولا ينفر الناس عنها" [١]، ورسولنا صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع يوصي أمته بالنساء فيقول" **ألا واستوصوا بالنساء خيرا فإنما هن عندكم عوان**[٢] **ألا وإن حقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن** "[٣].

مساكين بعض الزوجات ممن كانت تحت يد من لا يخاف الله ولا يتقيه، ولا يحسن صحبتها وعشرتها، فنذكرهم بمثل هذه المعاني علَّهم أن يراجعوا حساباتهم ويخافوا ربهم، بإحسانهم إلى زوجاتهم، وحسن عشرتهن.

سابعا: الإحسان إلى الحيوانات والبهائم

فقد أمر الإسلام بالإحسان إليها بإطعامها وإسقائها، ونهى عن تعذيبها وأذيتيها فكلكم يعلم أن امرأة دخلت النار بسبب هرة سجنتها حتى ماتت، وقد لعن الرسول صلى الله عليه وسلم من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا يقصد للرمي واللعب، بل حتى في حال الذبح فقد قال رسولنا صلى الله عليه وسلم " **إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا**

---

(١) تفسير الرازي، ٣/٣٣٠.

(٢) عوان: أي أسراء، أو كالأسراء، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ٣/ ٣١٤.

(٣) صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٩٣٠).

القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته"[1]

ثامنا: الإحسان في الدعوة إلى الله تعالى

من أسباب قبول دعوة الداعي أن يحسن القول في دعوته، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣] قال السعدي رحمه الله تعالى:" هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر أي: لا أحد أحسن قولا: ﴿ مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة الله، بجميع أنواعها، والحث عليها، وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه، خصوصا من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين"[2].

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٠٨٩).

(٢) تفسير السعدي صـ ٧٤٩.

تا سعا: الإحسان عند الخصومات والجدال

فلا أنفع من الإحسان في القول، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤]، قال الألوسي رحمه الله في تفسير هذه الآية:" أي ادفع السيئة حيث اعترضتك من بعض أعاديك بالتي هي أحسن منها وهي الحسنة، على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقا أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات كالإحسان إلى من أساء فإنه أحسن من مجرد العفو، وللمبالغة وضع ﴿أَحْسَنُ﴾ موضع الحسنة؛ لأن من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بما دونه"(١)

عاشرا: الإحسان في إتقان الوضوء والصلاة

وذلك لما يترتب عليهما من الأجر الكبير، فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" **ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله**"(٢)

---

(١) روح المعاني، للألوسي١٨/ ١٩٩.

(٢) صحيح مسلم برقم (٣٣٥).

ثمرات خلق الإحسان

وأعظم ثمرات الإحسان في الآخرة دخول الجنة والنظر إلى وجه الله تعالى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "**إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله عز وجل: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّضْ وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم' ثم تلا:**﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ ﴾[يونس: ٢٦] (١).

وبهذا يتبين لنا أن خلق الإحسان يشمل جوانب الحياة كلها، عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقا، فكل عبادة لابد لها من الإحسان والإتقان والإخلاص ولهذا قال تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ ﴾ [الإسراء: ٧] .

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٧٥٩).

١٥ـ خلق الشكر

الشكر في اللغة

قال أهل اللغة:" الشكر: تصور النعمة وإظهارها، ويضاده الكفر، وهو: نسيان النعمة وسترها، ودابة شكور: مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها، والشكر من شكرت الإبل تشكر إذا أصابت مرعى فسمنت عليه، الشكر عرفان الإحسان ونشره"(١)

الشكر في الاصطلاح

قال الكفوي:" الشكر: كل ما هو جزاء للنعمة عرفا، وهو: عرفان الإحسان ومن الله المجازاة والثناء الجميل وأصل الشكر تصور النعمة وإظهارها"(٢)

وقال ابن القيم:" ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده : ثناءً واعترافاً وعلى قلبه: شهوداً ومحبة وعلى جوارحه انقيادا وطاعة"(٣)

حاجتنا إلى خلق الشكر

لقد وهبنا الله سبحانه وتعالى النعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، فهو الذي سخَّر لنا كل ما في هذا الكون من النعم والعطايا من أجل

---

(١) المفردات، للراغب الأصفهاني صـ ٤٦١،ولسان العرب، لابن منظور ٤/ ٤٢٤.

(٢) الكليلت، للكفوي صـ ٨٤٣.

(٣) مداج السالكين، لان القيم ٢/ ٢٤٤.

عبادته؛ لكي تعين الإنسان علي معرفته والقرب منه تبارك وتعالي، وقد أمرنا الله عز وجل بأداء شكر هذه النعم، قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فمن الواجب علي المسلم أن يستشعر فضل الله ونعمه عليه في كل وقت وحين والحرص علي ذلك، فالله سبحانه وتعالى وعد الشاكرين بالجزاء العظيم وجعله سببا للحفاظ على النعم وزيادة العطاء كما أخبرنا ربنا تبارك وتعالى بذلك حينما قال تعالى:﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [إبراهيم: ٧]، فنعم الله علينا عديده وأعظمها نعمة الهداية للإسلام والإيمان فهو سبيل النجاة في الدنيا والآخرة والفوز بالجنة، والشكر شطر الدين؛ لأن العبد تكون حاله إما ضراء فيصبر وإما سراء فيشكر، فعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له"(١)، والشكر سببه حصول النعم واندفاع النقم فإذا وقع ذلك شرع في مقابل ذلك شكر العبد لله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

(١) صحيح مسلم برقم (٥٣١٨).

[النحل: ١١٤]، وحقيقة الشكر هي اعتراف المؤمن بحصول النعمة من المنعم واقراره بذلك باللسان واستعمال النعمة في طاعة الله.

من أسماء الله الشكور

لأهمية هذا الخلق فقد سمى الله نفسه بالشكور، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى: ٢٣]، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:" أي: يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر"(١)، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٧]، قال الإمام الشوكاني في تفسير هذه الآية:" يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة"(٢).

وسمى الله تعالى نفسه بالشاكر فقال تعالى: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨]، قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:" تذييل لما أفادته الآية من الحث على السعي بين الصفا والمروة بمفاد قوله: ﴿ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾[البقرة: ١٥٨]، والمقصد من هذا التذييل الإتيان بحكم كلي في أفعال الخيرات كلها من فرائض ونوافل وكلمة ﴿خَيْرًا ﴾ في الآية نكرة في سياق الشرط، فهي عامة ولهذا عطفت

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٠٤.

(٢) فتح القدير، للشوكاني ٧/ ٢٣٨.

الجملة بالواو دون الفاء لئلا يكون الخير قاصرا على الطواف بين الصفا والمروة"[1]، والشكر من صفات الله عز وجل ومعناه أنه يزكو عنده القليل من أعمال العباد فيضاعف لهم الجزاء، وشكره لعباده مغفرته لهم، وقولهم: "شكر الله سعيه" أي بمعنى أثابه الله على ذلك.

الشكر من أخلاق الانبياء

الشكر خلق من أخلاق الأنبياء والمرسلين؛ لهذا وصف الله أنبيائه ورسلهم بأنهم متمثلين لهذا الخلق، فقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣]، وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾ [النحل: ١٢١] ، وكان صلى الله عليه وسلم يكثر من دعاء الله أن يلهمه الشكر، فعن ابن عباس قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو" اللهم اجعلني لك شاكرا لك ذاكرا لك راهبا لك مطواعا إليك مخبتا أو منيبا "[2].

وكان صلى الله عليه وسلم يمتثل خلق الشكر عمليا، فعن المغيرة بن شبعة رضي الله عنه قال: إن كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقوم أو

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢/ ٦٤.

(٢) سنن أبي داود برقم (١٥١٢)، وقال عنه الالباني: صحيح.

ليصلي حتى ترم قدماه، فيقال له فيقول: "أفلا أكون عبدا شكورا"[١]، وعن أبي بكرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا جاءه أمر سرور أو بشر به خر ساجدا شاكرا لله "[٢].

وكان صلى الله عليه وسلم يُعلِّم أصحابه التخلق بخلق الشكر، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيده يوما ثم قال:" يا معاذ والله إني لأحبك فقال له معاذ بأبي أنت وأمي يا رسول الله وأنا والله أحبك قال أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"[٣] .

أركان الشكر

أولا: الاعتراف بالنعمة

أي أن تُقِر وتعترف بأن الذي أسداك تلك النعمة هو الله؛ وما العبد إلا وسيلة فقط للحصول عليها؛ فلا تنسب النعمة للعبد وتنس الرب؛ فعن زيد بن خالد الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " **أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله**

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨٣٦) .

(٢) سنن أبي داود برقم (٢٧٧٤) وصححه الالباني.

(٣) مسند أحمد برقم (٢٢١٧٢) ، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير عقبة بن مسلم.

ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب "[١].

ثانيا: التحدث بالنعم والثناء على المنعم

قال تعالى:﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى: ١١]، ولهذا كان نبينا صلى الله عليه وسلم يحي ليله كله في الثناء على الله عز وجل، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: " فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فلمست المسجد فإذا هو ساجد وقدماه منصوبتان وهو يقول: أعوذ برضاك من سخطك؛ وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك؛ وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"[٢]

ثالثا: تسخير النعم في طاعة الله

قال تعالى:﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ: ١٣]، يقول صاحب الظلال حول هذه الآية:" أي: سخرنا لكم هذا وذلك في شخص داود وشخص سليمان عليهما السلام فاعملوا يا آل داود شكرا لله لا للتباهي والتعالي بما سخره الله والعمل الصالح شكر لله كبير، وقوله تعالى:﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾، تعقيب تقريري يكشف

---

(١) صحيح البخاري برقم (٨٠١٩).

(٢) صحيح مسلم برقم (٧٥١).

عن تقصير البشر في شكر نعمة الله وفضله وهم مهما بالغوا في الشكر قاصرون عن الوفاء؛ لأن نعم الله تعالى تغمر الإنسان من فوقه ومن تحت قدميه، وعن أيمانه وعن شمائله، وحين نمضي في استعراض آلاء الله على هذا النحو فإننا ننفق العمر كله، ونبذل الجهد كله، ولا نبلغ من هذا شيئا"(١).

فمن رزقه الله علما فشكره بالإنفاق منه بأن يعلم غيره، ويفقه أهله وجاره، ومن رزقه الله جاها، فشكره بأن يستعمله في تيسير الحاجات للآخرين، وقضاء مصالحهم، ومن أفاض الله عليه إيمانا راسخا، ويقينا ثابتا، فشكره أن يفيض على الآخرين من إيمانه، وأن يسكب عليهم من يقينه؛ وذلك بأن يذكرهم بنعم الله وآلائه، وأن يحيي في قلوبهم الرجاء والخوف والخشية من الله، ومن رزقه الله الذرية فإن شكرها يكون بأن يغرس في قلبها عقيدة التوحيد من الصغر، وأن ينشئها على طاعة الله عز وجل.

وكذلك شكر الله عز وجل على ما أنعم به علينا من جوارح، كاليدين والرجلين والعينين والأذنين وغيرها؛ أن نستخدمها في طاعة الله عز وجل كما قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ ﴾ [المؤمنون: ٧].

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب ١١٥/٦ باختصار.

وسائل تحقيق الشكر

أولا: معرفة العبد أنه مملوكا لخالقه

وأنه لا يملك شيئا على الإطلاق، وأن كل ما لديه إنما هو محض عطاء من سيده ولذلك ثبت في الصحيحين أن النبي قام حتى تقطرت قدماه. فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "**أفلا أكون عبدا شكورا**"(١)، أي أن كل ما فعله الله تعالى بي من الاصطفاء والهداية والمغفرة هو محض عطاء منه سبحانه يستحق عليه الحمد والشكر، فما أنا إلا عبد له سبحانه.

ثانيا: ذكر الله عزوجل

فالشكر في حقيقته هو ذكر لله عز وجل وقد ورد عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء: ٣]، قيل بأنه: لم يأكل شيئا إلا حمد الله عليه، ولم يشرب شرابا إلا حمد الله عليه، ولم يبطش بشيء قط إلا حمد الله عليه، فأثنى الله عليه أنه كان عبدا

---

(١) صحيح البخاري برقم (١٠٦٢) ورواه مسلم برقم (٥٠٤٤)

شكورا، وقال النبي: "**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها**"(١)

ثالثا: الدعاء

بأن يجعلك الله تعالى من الشاكرين، وأن يوفقك لطريق الشكر ومنزلته العالية، لأنه قد ورد الترهيب في كتاب الله من الجحود وعدم الشكر وجعل الله نكران النعمة مؤذن بزوالها، قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠]، قال الألوسي في تفسير هذه الآية:" أي لنفعها؛ لأنه يربط به القيد ويستجلب المزيد ويحط به عن ذمته عبء الواجب ويتخلص عن وصمة الكفران ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي لم يشكر ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بترك تعجيل العقوبة والإنعام مع عدم الشكر أيضا "(٢).

وقد ذكر الله عز وجل قصة قارون في سورة القصص، وما حصل له من النعم العظيمة التي توالت عليه؛ حتى إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، وقال إن ما أوتيه من هذه النعم لكونه حقيقا بذلك، فكفر هذه النعم ولم يشكرها، ولم يضفها إلى المنعم بها، ولم يصرفها في طاعة الله عز وجل، فأهله الله تعالى، قال تعالى:﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا

---

(١) صحيح مسلم برقم (٤٩١٥).

(٢) روح المعاني، للألوسي ١٤/ ٤٨٣.

كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١]، هذه نتيجة كفران النعم، وعدم شكرها، فهذه النعم التي أنعم الله تعالى بها عليه، لمَّا لم يشكرها صارت وبالا عليه، وذهبت وذهب معها من غير أن يستفيد، بل تضرر وخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

رابعا: الحذر من الاستدراج بالنعم

ومن القضايا المهمة التي ينبغي الانتباه إليه مسألة الاستدراج فعن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد من الدنيا ما يحب و هو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج"(١)، ذلك حين ترى زيادة النعم و إسباغها بدون شكر لله عز وجل، فهذه علامة خطر ينبغي الوقوف عندها، كما قال الله عز وجل: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ٤٤] وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ – ٥٦].

---

(١) صحيح الجامع برقم (٥٦٢).

كيف نكون من الشاكرين؟

أولا: بالتفكر في نعم الله علينا

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾ [النحل: ٧٨]، واحذر أن تكون من هؤلاء الذين قال الله فيهم:﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[النحل: ٨٣] تفكر في نعم الله عليك واشكر الله، قال الشيخ عائض القرني: " تذكر نعم الله عليك فإذا هي تغمرك من فوقك ومن تحت قدميك ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، صحة في بدن، أمن في وطن، غذاء وكساء، وهواء وماء، لديك الدنيا وأنت ما تشعر، تملك الحياة وأنت لا تعلم ﴿ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ ﴾ [لقمان: ٢٠] عندك عينان، ولسان وشفتان، ويدان ورجلان:﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ ﴾ [الرحمن: ١٣] هل هي مسألة سهلة أن تمشي على قدميك، وقد بترت أقدام؟!وأن تعتمد على ساقيك، وقد قطعت سوق؟! أحقير أن تنام ملء عينيك وقد أطار الألم نوم الكثير؟!وأن تملأ معدتك من الطعام الشهي وأن تكرع من الماء البارد وهناك من عكر عليه الطعام، ونغص عليه الشراب بأمراض وأسقام؟! تفكر في سمعك

وقد عوفيت من الصمم، وتأمل في نظرك وقد سلمت من العمى، وانظر إلى جلدك وقد نجوت من البرص والجذام، بل المح عقلك وقد أنعم الله عليك بحضوره ولم تفجع بالجنون والذهول، أتريد في بصرك وحده كجبل أحد ذهبا؟! أتحب بيع سمعك وزن ثهلان فضة؟!هل تشتري قصور الزهراء بلسانك فتكون أبكم؟! هل تقايض بيديك مقابل عقود اللؤلؤ والياقوت لتكون أقطع؟! إنك في نعم عميمة وأفضال جسيمة، ولكنك لا تدري، تعيش مهموما مغموما حزينا كئيبا! وعندك الخبز الدافئ، والماء البارد، والنوم الهانئ والعافية الوارفة، تتفكر في المفقود ولا تشكر الموجود، تتزعج من خسارة مالية وعندك مفتاح السعادة، ومن القناطير مقنطرة من الخير والمواهب والنعم والأشياء، فكر واشكر ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾ [الذاريات: ٢١] "[1]

ثانيا: القناعة والرضا بما قسم الله لنا

عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:" من يأخذ من أمتي خمس خصال فيعمل بهن أو يعلمهن من يعمل بهن قال قلت: أنا يا رسول الله قال فأخذ بيدي فعدهن فيها ثم قال: اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، واحسن إلى

(١) لا تحزن، لعائض القرني صـ ٢١.

جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ،ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب"[١].

وهذا رجل ابتلاه الله بالعمى وقطع اليدين والرجلين، فدخل عليه أحد الناس فوجده يشكر الله على نعمه، ويقول: الحمد الله الذي عافاني مما ابتلى به غيري، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا، فتعجب الرجل من قول هذا الأعمى مقطوع اليدين والرجلين، وسأله: على أي شيء تحمد الله وتشكره؟ فقال له: يا هذا، أشكر الله أن وهبني لسانا ذاكرا، وقلبا خاشعا وبدنا على البلاء صابرا.

ثالثا: شكر من أسدى إليك معروفا من الناس

عن أبي هريرة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم "لا يشكر الله من لا يشكر الناس""[٢]، وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من استعاذكم بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه و من دعاكم فأجيبوه و من صنع إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه"[٣] .

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٤٩).

(٢) رواه الترمذي برقم (١٩٥٤) ، قال عنه الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) صحيح الجامع برقم (١٠٩٦٥).

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيرا فقد أبلغ في الثناء"[١]

رابعا: بصلاة الضحى

فعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى"[٢]

خامسا: بتقوى الله وطاعته

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] قال الألوسي:" أي: لعلكم تقومون بشكر ما أنعم به عليكم من النصر القريب بسبب تقواكم إياه ، ويحتمل أن يكون كناية أو مجازا عن نيل نعمة أخرى توجب الشكر كأنه قيل: فاتقوا الله لعلكم

---

(١) صحيح الجامع برقم (١١٣١٤).

(٢) رواه مسلم برقم (١١٨١).

تنالون نعمة من الله تعالى فتشكرونه عليها فوضع الشكر موضع الإنعام لأنه سبب له ومستعد إياه "[1]

(١) روح المعاني، للألوسي٣/ ١٩٥.

فهرس الموضوعات

استهلال.....٣
إهـــــــداء.....٤
مقدمة مكارم الأخلاق.....٥
تقديم ٩
سلم مكارم الأخلاق ١٢
تعريف الأخلاق.....١٥
مكانة الأخلاق في الإسلام ١٧
أهمية حسن الخلق ٢٢
هل الأخلاق جبلية أم كسبية؟ ٢٤
١ـ خلق الصدق.....٢٦
٢ـ خلق الأمانة.....٣٩
٣ـ خلق الصبر..... ٥٨
٤ـ خلق الإخلاص ٧٥
٥ ـ خلق الثبات.....٨٩
٦خلق العفة.....١٠٤
٧ـ خلق الحياء.....١١٩
٨ـ خلق الوفاء.....١٣١

٩ـخلق العفو.....١٤٦
١٠ـ خلق الرحمة.....١٦٠
١١ـ خلق الرفق.....١٧٤
١٢ـ خلق الإيثار.....١٨٦
١٣ـ خلق الكرم.....١٩٧
١٤ـ خلق الإحسان.....٢١٤
١٥ـ خلق الشكر.....٢٢٦